ملحمة التيجان 0.5

تروباكور و عازف الناي :

لَوْحَةُ سَيَّافٍ عَلَى سَطْحِ البَحْرِ

أنيس حاجي

تروبادور وعازف الناي :

لوحة سياف على سطح البحر

أنيس حاجي

خريطة عالم الرواية

إلى فرساني الستة ،

الحامون لعالم الرواية ، الذين لولاهم لما رأت شخصياته النور ، و لبقيت حبيسة خيالي.

ارتجفت أوتار قيثارته على وقع عثرة من حصانه الذي كاد يسقط إثر مروره بحفرة ، فاستفاق راكبه بعد أن كان غارقا في بحر من النظم والقوافي ، ثم التفت إلى صاحبه قائلا : ((أوشكت على إتمامها ، لم يتبق إلا سطر واحد ، سطر واحد وتكتمل الأغنية ، لكن ذلك السطر يأبى الركوب على مطية ألحاني ، آه كم هو فارس عنيد!))

- ((ألا يمكنك ولو مرة التحدث كشخص طبيعي؟)) قالها عازف الناي متذمرا من استعمال تروبادور المفرط للاستعارات والكنايات السخيفة.

- ((اعفني من كلامك الفارغ وساعدني هيا ، اعطني كلمة على وزن زمان.))

- ((لا يجدر بنا أن نكون في هذا المكان!))

- ((جميل ، لكني سبق وأن استعملت كلمة مكان.))

- ((أنا جاد.)) قالها عازف الناي بحزم. ((لقد اخترت أسوء الأوقات لتأتي بنا إلى هنا ، إن لوردات (الأراضي الخشبية) في حرب مع لوردات (جبال الصقيع) ، ونحن في منتصف هذا الصراع ، في الحدود تماما ، كما أن الليل قد بدأ يحل ولم نجد بعد مكانا لنبيت فيه ، أنا لن أنام مرة أخرى وسط الحشرات!))

كانت الشمس فعلا تتوارى وراء الجبال ، مختطفة الضوء شيئا فشيئا من السماء التي تلونت بالبنفسجي لتحتل فيها النجوم أماكنها استعدادا لحلول الليل. قال تروبادور : ((كف عن التذمر ، كنت تعلم أن طبيعة عمل المغني الرحال تستدعي ذلك ، حذرتك في اليوم الأول ، لكنك مع ذلك أردت المجيء ، إنه خيارك.)) ثم شرع في دندنة لحن ما بصوت منخفض. ليقاطعه عازف الناي مرة أخرى : ((حياة المغني الرحال لا تستدعي ذهابه إلى أماكن الحروب

والنزاعات! والمخاطرة بحياته والنوم بين الحشرات! أعرف مغنين أقل شأنا منا ، هم الآن بين أروقة القصور ، لا يتعبهم إلا حمل أكياس النقود الثقيلة! حتى أن بعضهم قد غنى داخل القصر الملكي ، في حضرة الملكة! وأنت تروبادور الشهير ، وحتى بعد أن انتشرت أغانيك عبر أصقاع العالم ، تنام على الطين كشحاذ! لماذا؟))

أخذ تروبادور نفسا عميقا ثم رد بهدوء : ((إن أردت أن تكون مهرجا للملوك ، فاذهب ، أنت حر ، لست أول عازف ناي يعمل معي ، وإن رحلت فلن تكون الأخير ، أفهم أن هذه الحياة لا تناسب الجميع ، كثيرون قد تخلوا عنها ، وودعوني غير قادرين على مجاراتي ، وبعضهم فعلا الآن بين أروقة القصور ، لكن لأي ثمن؟ ما إن يفنى مَلِكهم حتى تفنى أغانيهم ونظمهم وقصائدهم المبتذلة ، أتعرف لماذا؟ لأن لا روح لها ، كلها عبارة عن تملق لا قيمة له ، وحين يموت من يتملقون إليه تموت معهم تلك الأغاني الساذجة ، أما ما أقوم به أنا ، فهو فن! أنا أغني للشعب ، للناس العاديين ، والناس هم الناس! الآن أو بعد ألف عام ، ستظل أفواههم تردد قصائدي ، وأصواتهم تغمغم ألحاني ، هذا ما يعنيه أن تعيش للفن ، هذا ما يعنيه أن تكون خالدا!))

ظل عازف الناي محدقا إلى صديقه الذي عاد لترديد ذلك اللحن وضاع في أفكاره مجددا. ربما كان محقا ، لو لم يعش هكذا لما اكتسب سمعته من الأساس. ثم تذكر أول يوم التقيا فيه ، أين كان يعزف الناي في حانة قريته ، ليأتي هو بحضوره الطاغي وشخصيته الآسرة ، ويلعب على أوتار تلك القيثارة، حتى أنه قد أبكى أكثر القلوب تحجرا حينما أدى "الجميلة الضائعة" ، ثم أخذ يستمع إلى قصصهم ، وإن لم تكن هناك قصص كان يسردها بنفسه ، تارة عبر ألحانه ، وتارة عبر كلامه وتمثيله ، وفي تلك اللحظة علم عازف الناي

تماما ، أنه يجب عليه أن يرافق هذا الرجل. وها هو الآن بعد ثلاث سنين وعيناه لا تزال تشع بنفس البريق الذي شعت به تلك الليلة ، بل وازداد بريقها ، إن كان هناك شخص يستحق أن تردد أشعاره ، فهو تروبادور!

هبت ريح باردة قادمة من الشمال ، لتعطس فرس عازف الناي ، بينما شهق حصان المغني ، فارتجف الصديقان بعدما تغلغل البرد تحت طبقات ملابسهما.

- ((يبدو أننا فعلا نحتاج مكانا للمبيت الليلة.)) قالها تروبادور ثم أخذ يلتفت حوله. ليرد صديقه مغمغما : ((يسعدني أنك لا حظت ذلك.))

- ((إن تبعنا هذا الطريق فسوف نصادف حتما قرية ما.)) ثم أشار بسبابته نحو ما يبدو أنه بقايا طريق مُعَبد ، موهته الشجيرات والأعشاب.

تأمله عازف الناي ، ثم أدار بصره حوله ، متلفتا إلى الغابة التي خرجا منها توا ، والجبال البعيدة التي أخفت الشمس تماما ، وسمحت لها بإطلاق آخر الومضات لضوئها الذي كان يودع العالم خلف القمم الثلجية منذرا بقدوم الليل. جرت رعشة خفيفة على عنقه ، ثم قال بهدوء : ((آمل أن يملكوا خانا ، أو يتفضل علينا أحدهم بإيوائنا.))

- ((لن ألومك على التفكير في ذلك ، لكني لن أعول عليه أيضا ، في أوقات كهذه ، لن يرغب أي أحد في إيواء غريبين تحت سقفه ، هذا فضلا عن مشاركتهم مخزون طعامهم ، لكن قد تكون أوقات الحروب مربحة بالنسبة إلى الخانات ، كثيرون ينزحون من بيوتهم بحثا عن مأوى ، وتكثر الأسفار فيرغب المسافرون في مكان للراحة.))

احتل القمر مكانا في السماء ، والتفت حوله النجوم محتفلة بحلول الليل ، ليجد الصديقان أخيرا قرية قريبة ، أين لمحا الأدخنة المتصاعدة التي أظهرتها الأضواء الصادرة من وراء الأشجار والتلال ، وتناهت إلى مسامعهما أصوات البشر والمواشي ، فاقتربا أكثر فأكثر حتى بلغا البوابة.

تنهد عازف الناي بعمق ، ثم هتف قائلا : ((أخيرا! أتانا الخلاص!))

ليرد تروبادور : ((ليس بعد ... تذكر ، نحن نبحث عن خان وليس عن قرية.))

- ((اسأل تلك المرأة هناك.)) وأشار إلى شابة كانت تحمل أكياسا معها متوجهة إلى منزلها. اقترب منها تروبادور ، فحثت الفتاة خطاها دون الالتفات إليهما ، لكنه قال محاولا تهدئتها راسما ابتسامة على محياه : ((انتظري أرجوك آنستي ، كل ما نريده هو السؤال عن خان قريب ، هذا كل شيء.))

التفتت القروية وظلت تحدق إليه ، فاستشعر تروبادور هدوء ملامحها حين لمحته ، وترجل من حصانه ثم اقترب منها ليخلع قبعته ويستطرد قائلا : ((اغفري لي جميلتي إخافتي لك ، اسمي تروبادور ، وأنا مغن متجول وهذا هنا صديقي ، نحن متعبان للغاية من كثرة السفر كما ترين ، وكنا نتساءل . . . هل قريتكم تحوي خانا بإمكاننا المبيت فيه؟))

ابتسمت الفتاة دون فتح فمها أو قول شيء ثم أشارت بيدها إلى مبنى خشبي كبير بجانب شجرة عظيمة وراء المنازل الحجرية. ليلمع شعرها الذهبي على ضوء المصباح الذي كانت تحمله ، وتبرز ملامحها الجميلة البريئة التي تنبض بالحياة. *أخيرا!* فكر عازف الناي. *خان بإمكاننا المبيت فيه.* فحث فرسه على المضي لكن تروبادور استطرد مخاطبا الفتاة : ((إنني أتساءل فعلا ، ما

الذي جعل فتاة جميلة مثلك تتجول في مثل هذه الساعة؟ وما هذه الأكياس التي تحملينها؟ لا يجدر بالجميلات أن ينخرطن في الأعمال الشاقة.))

بالطبع لن يفوت فرصة كهذه! فكر عازف الناي متذمرا. *إنه بارع في الكلام ، لكن هناك شيئا آخر يجعل الناس يسحرون به ، شيء ما في نبرته يجعله يقول ما يريد دون ممانعة أي شخص،* وبالفعل أخفضت الفتاة رأسها وضحكت بهدوء ، *تبا!* كان على عازف الناي أن يكبح صديقه قبل أن يبدأ في سرد حكاياته وإنشاد أغانيه ، لكن الفتاة استمرت بالضحك حتى احمرت وجنتاها ، ثم رفعت رأسها فاتحة فمها كاشفة عن فم بلا أسنان! تراجع تروبادور متفاجئا ، وشعر عازف الناي بالأسف تجاهها ، ثم فكر متحسرا ، *يا للجمال الضائع!*

عاد تروبادور إلى حصانه بسرعة ، ثم قال : ((ليلة سعيدة.)) لينطلق متوجها إلى الخان ، ظلت الفتاة متجمدة وقد اختفت الابتسامة من على وجهها ، و بدت كأنها على وشك البكاء. رق حالها لعازف الناي فألقى إليها صرة من المال ثم قال بنبرة مشفقة : ((اقبلي هذا الاعتذار منا.)) لم يكن بارعا في الكلام كصاحبه ، لكن لطالما اعتقد أنه أكثر فهما للناس منه ، لم يكن تصرف تروبادور ناجما عن قسوة أو شر ، وإنما ذلك راجع لطبيعة شخصيته التي لن يفهمها أي شخص إلا عازف نايه. التفت إلى الفتاة وراءه ، فوجدها تتحسس ما بداخل الصرة ، و فكر : *تبدو أسعد الآن* ، ثم حث فرسه وراء صديقه نحو الخان.

كانت "السنديانة الذهبية" خانا من دورين بني بجانب شجرة سنديان أخذ اسمه منها ، وقد كان المبنى الخشبي الوحيد في الأنحاء ، مما دل على قدمه ،

أما السنديانة نفسها ، فهي على الأرجح كانت هنا قبل تأسيس المملكة ، بل وحتى قبل سقوط الإمبراطورية القديمة بحد ذاتها!

انفتح باب الخان ودلف منه الرجلان ، أحدهما طويل القامة ، نحيف الجسم ، في نحو الأربعين ، له شاربان رفيعان ولحية ذقن كثيفة ، وقد بدا بهيا في ملابسه الخضراء ، وقبعته ذات الريشة ، معلقا قيثارته خلفه كما لو كانت سيفا أو حقيبة. أما الآخر فقد كان أصغر سنا بقليل ، قصيرا بدينا ، ذا وجه مستدير عليه شعرات كانت لتشكل لحية لولا قلتها ، وقد كان يرتدي الأحمر وعلى رأسه قلنسوة بلون ملابسه ، كما حمل حقيبة ثقيلة يبرز منها ناي تم الاعتناء به جيدا.

دار تروبادور بعينين فاحصتين حول المكان ، كان الخان متسعا ، احتل فيه الموقد المكان المقابل للباب ، وانتشر أمامه الزبائن على طاولات لهم يشربون ، ويأكلون ، ويلعبون الورق ، بينما توضعت السلالم على يمينه مؤدية إلى الغرف ، وأما على يساره فقد كانت امرأة حسناء وراء طاولة الخدمة تحضر المشروبات وتوزع الأكل. رفع عازف الناي بصره نحو صديقه ، فوجده متوجها بالفعل نحوها ، ليقول في نفسه : *أين كان إقبالك هذا حين كنا مع سائس الخيول؟*

اقترب المغني من الحسناء وسأل قائلا : ((أرجو المعذرة آنستي ، ألديكم أي غرف الليلة؟ لقد قطعنا الكثير من الأميال ونريد القليل من الراحة.))

التفتت الساقية إليه ، وقد أشرق وجهها الأبيض المائل إلى السمرة ، وبرقت عيناها الرماديتين ، بينما انسدلت خصلة من شعرها المتموج على جانب وجهها

الأيمن ، لترد بابتسامة : ((لحسن حظك ، لا تزال لدينا غرفة واحدة متبقية ، لكن سيكون عليك مشاركتها مع صديقك هنا.))

هم تروبادور ليقول شيئا ، لكن عازف الناي قاطعه بسرعة : ((شكرا ، ذلك ما أردناه ، سنأخذ الغرفة ، كما أننا نرغب بطبقين من الحساء وكأسين من المزر قابلين للزيادة ، هذا كل شيء.))

ردت الفتاة بنفس الابتسامة : ((مرحبا بكم إذن في خاننا ، بإمكانكم الجلوس أينما أردتم ، أو الصعود إلى الأعلى لتفحص غرفتكم ، سيجهز العشاء بعد قليل.)) ثم استدارت لتكمل عملها.

مجددا حاول تروبادور قول شيء آخر لكن عازف الناي جره بعيدا قائلا : ((لو تركتك تتكلم لبقينا هنا إلى الأبد ، أنا أتضور جوعا ، دعنا نأكل أولا ثم لتثرثر كما تريد ، ما رأيك أن تتفقد غرفتنا في الأعلى ، وسأحجز لنا طاولة هنا؟)) ليرد تروبادور على مضض : ((حسنا.)) ثم صعد عبر السلالم إلى الأعلى.

وجد عازف الناي طاولة بجانب الموقد فوضع حقيبته عليها ثم جلس وبدأ يتأمل الزبائن من حوله. على جانبه الأيمن كان هناك رجل كبير السن قليلا ، في أواخر خمسيناته ، خط الشيب بعض رأسه ، وقد بدت القوة على جسمه والحزم على وجهه ، كان يشرب كوبا من المزر سابحا عقله في اللاشيء. بينما كان وراءه ثلاثة من الفرسان يلعبون الورق ، مصدرين ضجة خفيفة ، غير مزعجة لكن مسموعة ، وقد رسم على صدورهم رمز لشجرة بيضاء الفروع على خلفية خضراء ، فعرف عازف الناي أنهما من جنود الأراضي الخشبية ، وسرى في جسمه شعور غير مريح حين تذكر أن هذه منطقة حرب. فأشاح بوجهه عنهم ليجد رجلين يأكلان قليلا ويتحدثان كثيرا ، وقد بدت من ملابسهما آثار

السفر ، ومن عينيهما انعكاسات لأشياء كثيرة رأوها. وما إن أدار وجهه إلى الزاوية حتى رأى ظلا لرجل ضخم متوار في الظلام ، كان يحتل مكانا بعيدا بجانب النافذة وقد كشف ضوء القمر على جزء من وجهه المليء بالندوب. ارتعش جسد عازف الناي ودق قلبه خوفا من هذا الرجل الغامض ، وحين التفت إليه ، أشاح العازف عينيه بسرعة وأمل ألا يكون قد رآه.

في تلك الأثناء وصلت النادلة حاملة صينيتين ، إحداهما فيها طبقا حساء والأخرى توضع عليها كأسان من المزر ، ثم قالت : ((جاء العشاء ، تفضل. أين صديقك؟)) رفع إليها عينيه ورد : ((إنه في الأعلى يتفقد الغرف.)) كان الرجل الغريب لا يزال يحدق فيه.

- ((من الأفضل أن يأتي بسرعة ، فالحساء سيبرد.)) ثم غادرت بقوامها الممشوق متجولة حول الطاولات عائدة لعملها ، فنظر عازف الناي بنصف عين إلى الرجل الغريب ، ليجده عاد للتحديق في النافذة مرة أخرى.

أتى تروبادور وجلس بجانب صاحبه الذي هم فعلا بالأكل ، ثم قال متأملا الحساء : ((يبدو أن الكثير قد فاتني.))

فرد عازف الناي بفمه المليء بالطعام : ((لماذا تأخرت؟ يمكنني أن أقول أنك لم تجد أي حسناء بالأعلى ، فلو كان ذلك لما أتيت أصلا ، لكنك مع ذلك تأخرت.))

رد المغني متذمرا بعد أن وضع قيثارته على الأرض بجانبه ، وأخذ يقلب الحساء بملعقته : ((بل كان مسنا ، ظل يصف لي الغرفة كما لو كنت سأشتريها، بل وبدأ يسرد القصص والحكايات.))

- ((ظننتك تحب الحكايات.))

- ((ليس وأنا جائع.)) ثم أخذ يلتهم حساءه بنهم.

- ((يسعدني أنك تذكرت أنك جائع.))

أخذ تروبادور رشفة من مزره ، ثم قال لصديقه : ((إذن ، ماذا كنت تفعل في غيابي؟))

- ((أتفحص الزبائن ،)) ثم خطف نظرة إلى الرجل الغريب في الزاوية ، لاحظ تروبادور شرود صديقه ، فالتفت بحذر وراءه ، ليجد الرجل في الظلال يحدق نحو ضوء القمر، فقال عازف الناي : ((يبدو أنه قد خاض الكثير.))

ليرد عليه المغني مرتشفا الشراب مجددا : ((بل يبدو أن الكثير قد خاضه.))

غمغم صديقه : ((ها قد بدأنا.))

انتهى الحساء من الطبقين ، وامتلأت معها معدة تروبادور وعازف الناي ، فطلبا كوبين آخرين من المزر ، أتت النادلة وبدأت في صب الشراب ، وحينها لاحظ صديق المغني عودة أعين الرجل الغريب للتحديق فيه مجددا ، فأدار بصره على الفور وحوله إلى صديقه ، الذي أشرق وجهه استعدادا لبدء الثرثرة : ((بإمكاني أن أقول إن هذا أطيب حساء في براسيا كلها.)) بادر تروبادور النادلة ، لترد بابتسامة : ((وهل تذوقت كل حساء في براسيا؟))

اعتدل المغني في جلسته ثم قال بفخر : ((أوه أجل ، فكما ترين فأنا مغن جوال، وطبيعة عملي تستدعي تذوق كل حساء في البلاد.)) كانت عينا الرجل تخترق جسد عازف الناي ، لم يكن بالإمكان تجاهل نظراته.

- ((أمممم ، تقول أنك مغن جوال إذن ، كثيرون منكم يمرون علينا ، لكن قليلا فقط يستحق الاستماع إليه ، أتساءل ما إن كنت بارعا في الغناء مثلما أنت

بارع في الكلام هكذا؟)) كان في نبرتها شيء من التحدي ، وإن كان شيء ما يحبه تروبادور فهو التحدي. لذلك رد قائلا بابتسامة عريضة : ((هل سمعت يوما بتروبادور؟ صوت الإله؟)) لطالما أحب نسب هذا اللقب لنفسه ، رغم أن البعض ينكرون عليه ذلك ، لما فيه من كفر صريح بالآلهة. بدا لعازف الناي أن صديقه لم يلاحظ نظرات الرجل المثبتة عليه ، والذي يبدو أنه على وشك الوثوب.

- ((أتقول أنك تروبادور بنفسه؟ أثبت لي ذلك.)) لم يكن واضحا على النادلة هل هي تريد التحقق فعلا أم أن كل ما تفعله هو السخرية ، لكن المغني ابتسم وارتشف رشفة من كوبه ، ثم حمل قيثارته وقال : ((لنرى. . . أنت تذكرينني بأغنية معينة ، أخبريني أأنت جنوبية؟))

- ((كلا ، أنا من (الروافد).))

- ((إنها في الجنوب ، مما يجعلك جنوبية بالفعل.)) ثم مرر أصابعه عبر قيثارته، فجذب بها أنظار الزبائن وعم الصمت الخان ، أما الغريب فلا زال بصره مثبتا على تروبادور ، لم يقوى عازف الناي على العزف وبذلك اكتفى بشرب مزره بهدوء. داعبت أصابع المغني أوتار القيثارة بخفة ، فأصدرت لحنا صاعدا نازلا ، طرب له الحاضرون ، ووقعوا في سحره ، ثم بدأ يغني بصوته فخرج هادئا ، ساحرا ارتفع معه حاجبا النادلة ، وأخذ ينشد :

I'm lost in the stars, moving with waves

Sleeping in heaven, deep in its caves

A whisper of wind, a scent of a rose

Filling the air and tickling my nose

When I opened my eyes,

I saw the sunrise,

She was there, this beautiful pearl

Under the skies,

Taken by tides,

To the hands of that southern girl

I'm lost in my dreams, searching for you

My heart is broken and split in two

For this magical world, I'm getting into

Is just so perfect to be true

But when I opened my eyes,

I saw the sunrise,

She was there, this beautiful pearl

Under the skies,

Taken by tides,

To the hands of that southern girl

صفق المسافران ، وأثنى الفرسان على أدائه مطالبين بالمزيد ، بينما اكتفى الرجل العجوز بالإيماء إعجابا ، أما الغريب فظل كصنم يحدق بعينيه الثاقبتين ، ابتسمت النادلة وقالت : ((أعترف أنك قد أثرت إعجابي.))

- ((لمَ لا تجلسين بجانبنا إذن ، سأسمعك المزيد.)) قالها وداعب أوتار قيثارته مجددا.

حينها بدا وكأن الرجل الغريب على وشك النهوض ، إلا أن النادلة أومأت إليه بيدها قائلة : ((لا بأس.)) فتراجع وعاد ينظر إلى النافذة ، أحس عازف الناي بقلبه في حنجرته ، فقال على الفور : ((ما كان ذلك؟))

ردت النادلة محضرة كرسيا لتجلس بجانبهما : ((إنه كرولن ، هو يعمل هنا ، يحضر الحطب و يصلح الأشياء ، ويقوم بكل الأعمال الشاقة ، وأهم من كل ذلك ، أنه يحمينا ، وجود فتاة جميلة هنا مع مسنين وفتى مريض قد يجلب المتاعب ، فمادام موجودا ، فلا أحد يتجرأ على إيذائنا.))

- ((أأنتم عائلة؟)) استفسر تروبادور وأخذ من كوبه رشفة.

- ((نوعا ما ، أجل ، ذلك المسن الذي وجدته يهتم بالغرف هو الأب ، أما الأم فأساعدها في أعمال المطبخ ، ولديهم ابن غير مكتمل العقل... إنه مريض، لكنه يقوم بعمله على أكمل وجه ، وهو الذي يرعى الخيول ، أما أنا و كرولن ، فلسنا من هذه العائلة لكنهم يعتبروننا كذلك.))

- ((أجل، أخبرتني أنك من (الروافد) ، هل لي بسؤالك عما جاء بك إلى هنا؟)) ثم داعب قيثارته بخفة على لحن الأغنية التي أنشدها مسبقا.

تنهدت النادلة ثم قالت : ((قصة طويلة...))

فصدر من القيثارة لحن سريع مرح قال صاحبها : ((لحسن حظك نحب القصص. أرجوك أخبرينا. من يعرف ، ربما ستتحول قصتك إلى أغنية جميلة ، ينشدها الناس في بلاط الملكة.))

نظرت الفتاة إلى النيران المشتعلة في الموقد ثم قالت : ((لا أظن أنني أريد من الملكة سماعها.))

- ((أفهم من ذلك أنها شخصية في القصة.))

- ((ليس تماما.)) قالت بنبرة مترددة ، وعاد الغريب ليحدق إليهم، فقال عازف الناي بسرعة : ((اعذري صديقي على إلحاحه الزائد ، نحن لا نجبرك على شيء ، أرجوك افعلي ما يريحك.))

فابتسمت النادلة بلطف وقالت : ((لا تقلق أيها السيد اللطيف ، أعرف كيف أعبر عن مشاعري ، كما أنني لست فتاة بريئة ، تفضل.)) وأعطته نايه ، فظل مصدوما للحظة ثم تفقد حقيبته ، لا أثر للناي ، *متى قامت بأخذه؟*

ضحكت النادلة قائلة : ((أنت لطيف يا عازف الناي ، تعابير وجهك ظريفة ، لم لا تعزف لنا لحنا ، وسأقرر عندها إن كنت فعلا أريد سرد قصتي.))

أخذ نظرة خاطفة إلى الغريب فوجده قد عاد للتحديق إلى النافذة ، ومع صمت الجميع ، استلم نايه وفكر في لحن ليعزفه ، وبعدها عدل أصابعه على فتحات الآلة وبدأ في النفخ ، صدر صوت شجي ، بألحان حزينة متمايلة ، أخذت تتموج بلطف راقصة بين أسماع الحضور ، رافقها تروبادور بنفحات خفيفة من قيثارته زادت الأغنية سحرا ، دار الغريب مرة أخرى وأخذ يتأمله ، لكن نظراته لم تكن حادة كالسابق ، بل لانت وزال تأثيرها الطاغي ، ووسط هذا الجو الدافئ من الأنغام ، أغمضت النادلة عينيها بلطف وانجرفت مع أمواج اللحن الجارفة ، حينها أنهى عازف الناي بنغمة خفيضة هادئة ، عم معها السكون مجددا.

صفق الحضور وهللوا ، وشربوا الأنخاب في صحة عازف الناي وجمال لحنه ، احمر وجهه المستدير خجلا ، ووضع نايه جانبا ، لتقول النادلة : ((لديك أسلوب ساحر في الإقناع.)) فاحمر أكثر.

- ((الآن تذكرت أنني لم أسألك بعد عن اسمك.)) استدرك تروبادور لينقذ صديقه من الإحراج.

- ((اسمي كارولا.)) ردت بابتسامة ، فداعب المغني قيثارته مجددا وأنشد :

Your story, Carola. Oh beautiful waitress!

What came of that beauty, you wonderful princess!

ضحكت كارولا قائلة : ((حقا؟ هذا بيت سخيف.))

فرد تروبادور بسرعة : ((ليس سيئا إن أخذنا في الاعتبار أني ألفته في أقل من ثانية.))

- ((حسنا ، حسنا ، سأحكي لك هذه القصة ، كنت أريد سردها منذ البداية على أي حال.)) ثم عادت إلى الوراء وعدلت جلستها ، ثم بدأت بالحديث.

عقد الملكة

قبل أربع سنين ، في بلاد (الروافد) :

تقدمت كارولا ببطء نحو الرجال الجالسين حول الطاولة ، وأخذت تخطو بقدميها المرتجفتين على السجادة البنية المزخرفة ، متظاهرة بالقوة ومثبتة عينيها على الرجل الذي توسط جماعته ، دوكودان ، سيدها ، الآمر الناهي هنا ، كان رجلا ضخما بحاجبين كثيفين وبشرة سمراء مع لحية كثيفة أراد بها إخفاء الندبة العملاقة على خده لكن دون جدوى ، ضغطت كارولا على الورقة التي بكفها ثم أخذت نفسا عميقا وتوقفت أمامهم مقاطعة حديثهم ، رمقها الزعيم بانزعاج فاحصا إياها من رأسها إلى أخمص قدميها ثم زمجر : ((ماذا تريدين؟))

رفعت رأسها بشموخ مصطنع ثم قالت بصوت يصارع الارتجاف : ((أريد أخذ حريتي.))

رفع دوكودان حاجبيه ثم أطلق ضحكة تبعها معه الحاضرون ، أشعرها ذلك بالغضب مع نفحة من الخوف ، لينقطع الضحك فجأة وتتحول تعابير الزعيم إلى جد محض ، لتزول كل المشاعر التي كانت تساور كارولا ، ويبقى الخوف فقط.

- ((أتريدين التعرض للضرب مجددا؟)) لم يكن ذلك في حقيقة الأمر تهديدا حقيقيا ، فهي دائما ما تتعرض للضرب ، سواء بسبب أو دون سبب ، مما أدى لتعودها عليه ، وتحوله إلى روتين يومي ، تلك كانت طبيعة حياة العبيد.

اصطنعت تعابير القوة على وجهها ، ثم قالت بتصميم : ((خذ ، وقع هذه الوثيقة ، فأنال أنا حريتي ، وتنجو أنت من السجن.)) و مدت إليه يدها بالورقة التي تحملها.

شعر الزعيم بالإهانة ، فوقف لتهتز الطاولة وسط اندهاش الحضور من جرأة الأمة ، كانت دواخل كارولا في فوضى عنيفة ، لكنها استطاعت بمعجزة ما أن تحافظ على موقفها الثابت ومظهرها الحازم ، حتى إذا هم بالهجوم عليها أوقفته قائلة : ((إن قمت بالرفض أو حاولت إيذائي ، فسوف أعترف لحرس المدينة بكل جرائمك ، وسيزجونك في السجن.)) كان دوكودان تاجر مجوهرات كبيرا ، وكأي ثري في (الروافد) فهو يملك الكثير من العبيد في خدمته ، لكن ما لا يعرفه الناس عنه ، هو أنه يجندهم ليسرقوا من أجله ، فيبيع كل المسروقات في السوق السوداء ويكسب من ورائها ثروات طائلة ، يستطيع بها إثراء تجارته وتعزيز مكانته ، حتى جعله ذلك من أغنى أغنياء (الروافد) ، بل (براسيا) كلها.

تبادل الرجال الجالسون النظرات بينهم ، كانت محظوظة لأنهم من أفراد العصابة فعلا ، لأنها لو فضحته أمام غرباء فلن يخدمها ذلك إطلاقا وسيؤدي بها حتما إلى الموت.

زمجر دوكودان مجددا وأنظاره تنبىء بشيء خطير سيحل : ((من أين أتتك هذه الفكرة الغبية؟ من هذا الذي حرضك على هذا؟))

- ((لا أحد ، والآن وقع هذه.)) ومدت إليه الورقة مجددا ، اختطفها منها ثم قرأ محتواها بغضب ، ليعطيها نظرة متوحشة ، ومزق القطعة إلى عدة قطع صغيرة ، تمزق معها قلبها ، وشعرت بالمتاعب التي تنتظرها. تراجعت ببطء إلى

الوراء ثم أخذت تصيح بصوت مرتجف : ((لا يمكنك إيذائي ، سوف أخبر الحرس بذلك ، سوف ترى ...))

- ((أيتها الغبية الساذجة ، من أين أتيت بهذه القمامة.)) ثم رمى على وجهها قطع الورق الصغيرة ، وأخذ يتقدم شيئا فشيئا بقبضة معقودة ، وفم لواه الغضب ، أكمل مهددا : ((أظننت أنه يمكنك تهديدي؟ أظننت أنه يمكنك إلحاف الضرر بي؟ أيتها الحمقاء الصغيرة.)) ثم هجم عليها ممسكا بشعرها المتموج وأخذ يجرها عبر الغرفة الطويلة متجها إلى الباب الخلفي ، صارعته بأذرع واهنة ، لكنه كان أقوى من أن يحس بتأثيرهما ، فكان كل ما تستطيع مصارعته هو الرغبة في الصراخ والبكاء من شدة الألم الذي ترتب عن شده لشعرها ، ومع ذلك فيبدو أنها خسرت تلك المعركة أيضا.

ركل الباب الخلفي المؤدي إلى زقاق فارغ بعنف ، ورماها على حائط المبنى المجاور ، ليصرخ ظهرها ألما ، وتصرخ معه وهي ملقاة على الأرض.

- ((ما الذي كنت تفكرين فيه؟ أنت في ورطة ، ورطة كبيرة.)) زمجر بها الزعيم بأنفاس تغلي غضبا.

نظرت إليه بأعين دامعة ، وقالت بكلمات مترددة : ((أريد حريتي . . .))

اتسعت عينا دوكودان وقال وهو يحرك أذرعه في كل مكان : ((حريتك؟ حريتك؟ يجدر بك أن تكوني ممتنة لي ، تصلين كل يوم إلى آلهتك السخيفة أن تحميني وتطيل من عمري ، أتعرفين ما معنى أن تكوني حرة؟ يعني أنك لن تحصلي على وجبات منتظمة كل يوم ، يجب عليك أن تعملي لشراء قوت يومك ، ولن تنامي تحت سقف يحميك المطر والبرد ، عليك بناؤه بنفسك ، و لن

يمكنك أيضا أن تبعدي المعتدين عنك بإظهار الوشم الذي يظهر انتمائك لي ، أولئك سيحضون بك كلما أرادوا ولن يمكنك منعهم.))

ردت بأنفاس متقطعة : ((لكنك تضربنا كل يوم . . .))

- ((أضرب؟ عليك أن تحمدي الآلهة أني أضرب وحسب ، لو كان يملكك شخص آخر ، لكان الضرب أقل مشاكلك ، أولئك يغتصبون عبيدهم كل يوم ، وحين يلدن يقتلون أطفالهن هذا إن لم يقتلنهن وهن حوامل ، وفوق كل ذلك هن يضربن ، يضربن ضربا مبرحا لن يمكنك أن تحلمي به ، إنك محظوظة فعلا أنك ملك لشخص شريف مثلي ، ثم إنني لا أضرب عبيدي إلا متى استحقوا الضرب ، أضربتك يوما دون سبب؟)) كانت ستجيب بنعم ، لكنها تيقنت إلى أنه لم يكن يسأل ، وإنما كان يهدد.

- ((أنت لص ، وتجبرنا على السرقة . . .)) ***أتجرأت فعلا على قول ذلك؟ لا يهم فهي قد تخطت الحدود منذ وقت طويل.***

- ((أجبرك على السرقة؟ كم أنت بريئة أيتها الصغيرة.)) ثم اندفع نحوها وجذب شعرها مجددا وهو يزمجر : ((كلانا يعلم أنك لست بريئة ، أيتها المخادعة ، لقد كنت لصة قبل حتى أن أشتريك ، أنت في حاجة إلي ، اعترفي بذلك ، كان بإمكانك الهروب دون إخباري ، لكنك اخترت القدوم إلي وقول كل تلك الوقاحة ، أخبريني ، أتحبين التعرض للضرب بهذه الشدة؟ أتتلذذين بذلك؟ أخبريني أيتها القذرة.)) ثم أمسك بخصلة أكبر وشدها بقوة ، صرخت معها كارولا لكنها لم تندم على ما فعلته ، لم يكن بإمكانها الهروب حقا ، لأن وشم العبيد لا يزال على عنقها ، ولأن ذلك سيجعل اشتغالها بأي وظيفة أخرى

مستحيلا ، وبذلك سينتهي بها الأمر مرمية على الطرقات ، هذا إن لم يصل إليها الحرس أو رجال دوكودان أولا.

انطلق صوت هتافات ممزوج بأنغام موسيقية ودقات طبول من آخر الزقاق ، وعلم كلاهما ما مصدر ذلك ، لقد وصل الموكب الملكي ، نظر دوكودان إلى الفراغ لوهلة ثم حول بصره إلى أمته ، ليغرز أصابعه في ذراعها ويجرها إلى مصدر الصوت ، انقادت معه مجبرة ، و أخذت تمسح الدموع والغبار من عليها ، وحين اقتربوا لمحوا اجتماعا من الأجساد التي تصفق وتصفر وتهلل ، اخترق دوكودان الصفوف بسهولة ، إذ أخذ جسده الضخم القوي يشق طريقه عبر الأجساد الأخرى بسهولة تامة ، غير آبه بمصير من يدفعه ، مما جعل كارولا تتلقى كل الصدمات والشتائم والنظرات الغاضبة ، توقف دوكودان أمام تمثال الملك إليام ، ثم رفع الأمة كما لو كانت حقيبة أو كيسا خفيفا ، ووضعها على قاعدة التمثال فتمسكت بساق الملك الحجرية ، ورمقت سيدها متسائلة ، أشار دوكودان إلى الأمام وقال : ((انظري.))

نظرت فإذا بها تجد الموكب الملكي ، حيث اصطفت العربات المزخرفة والخيول المدربة ورفرفت الأعلام الفيروزية التي توسطها رسم لرأس أسد ذهبي متوج.

- ((انظري إلى الملكة.)) قال دوكودان بحزم. فبحثت عنها وسط خيول الحرس ودروعهم وأجساد الحاضرين ورؤوسهم ، وهناك رأتها ، مطلة من داخل العربة ، وقد أشرق وجهها وترقرق تاجها فوق شبكة من الشعر الأسود الناعم ، ولمعت عيناها ببريق من الأزرق والأخضر ، في تركيبة غير متماثلة لكن

متناغمة من الألق والجمال ، كما أفسح ثغرها عن ابتسامة وقورة ، أصبغ جمالها هيبة.

- ((أترين عقدها؟)) قال دوكودان من الأسفل ، فوجهت ناظريها إلى عنق الملكة ، لتجده محاطا بعقد لامع مرصع بالجواهر وأحجار العقيق الأسود ، كان العقد آية في الجمال ، وكان واضحا لم دوكودان مهتم به.

أنزلها من على التمثال وأعاد جرها مجددا مخترقا الناس غير آبه لهم ، ثم لما اختليا قال لها : ((إنها تلقب بملكة العقيق لسبب ، سواحل العقيق موطنها ، وذلك العقيق الأسود أغلى منك بمليون مرة ، تريدين حريتك؟ أحضري لي ذلك العقد وسوف تنالينها ، بل سوف أعطيك مالا أيضا.))

نظرت إليه غير مصدقة ثم قالت : ((هذا مستحيل ، إنها الملكة ، سوف يمسكون بي ، وسوف تكون أنت أيضا في مشكلة.))

رسم على وجهه ابتسامة شريرة ثم قال بنبرة ساخرة : ((الأسياد لا يحاسبون على عبيدهم ، سوف يقتلونك ، أو يأمرونني بذلك ، في كلا الحالتين لن يتضرر أحد إلا أنت.))

- ((ماذا إن أخبرتهم أنك من أمرتني بذلك.))

- ((لن يصدق أحد هذا الهراء ، تاجر غني مثلي لن يأمر أمة حمقاء على مثل هذا الفعل الخطير.))

- ((لكن هذه هي الحقيقة!))

- ((كلا ، أنا لا آمرك بأي شيء ، أنا أحاول التخلص منك وحسب ، يمكنك نيل حريتك هكذا ، أو بإمكانك انتظار جفاف البحار وشروق الشمس من مغربها.))

ثم أطلق ضحكة عنيفة ارتجت لها حواسها ، أحستها بالإهانة وأشعرتها بالتحدي ، فقالت بحزم : ((سأفعلها.))

انقطعت ضحكات دوكودان ، ورمقها بشيء من الاستهجان ، ثم عاد ليضحك مجددا ، وهو يبتعد عائدا إلى مقره : ((حظا موفقا إذن ، أيتها الحمقاء ، ستصبحين أسطورة . . .)) فدار وأكمل بابتسامة : ((. . . في الغباء.)) ثم أكمل مبتعدا وصدى صوته يتجلجل بين جدران الزقاق الضيق. عدلت شعرها المتموج وأخذت تربطه وتعقده ببطء ، ثم نظرت إلى السماء وتأملتها لبرهة ، مفكرة فيما هي على وشك الإقدام عليه ، لكنها سرعان ما عادت لتخفض رأسها وشرعت في المشي ، *التفكير في الأمر لن يزيدني إلا ترددا ، إن أردت حريتي فعلي فعلها ، وسوف يرى ذلك القميء ما الذي بإمكاني فعله.*

*** * * ***

ثبتت عينيها على فريستها كصقر صياد ، وتقدمت إلى المحل بخطى واثقة ، كان ذلك الفستان الأصفر الملقي على الجانب الأيمن وسط الألبسة المزركشة ما تنشده وتبحث عنه ، كونه ما ترتديه جواري الملكة غالبا ، دخلت المحل وابتسمت للبائع ، ثم قالت بنبرة لعوب : ((أأجد عندك فستانا أزرق من المخمل؟ فسيدتي ترغب بأحدها.)) فحصها البائع حتى وجد وشم دوكودان على عنقها ، فرد قائلا : ((بكل سرور ، أي شيء للسيدة زوجة دوكودان الموقر.)) ثم أخذ يفتش بين الأقمشة مديرا ظهره إليها ، فاستغلت كارولا الفرصة ، وأخذت طرف الفستان الأصفر بأصابعها ، لكنه فجأة استدار قائلا : ((لم أجده هنا ، انتظري لأبحث لك عنه بالداخل.)) منحته ابتسامة ردها ودخل عبر أحد الأبواب ليحضر الفستان ، كانت محظوظة لأن يدها أخف من التفاتته ،

أمسكت بالفستان ولفته بخفة داسة إياه بين ملابسها بحيث لا يمكن أن يبرز من تحتها بينما أخذت تتلفت إلى الباب تارة وإلى المخرج تارة أخرى كي لا يراها أحد. خرج البائع بعد مدة قصيرة مع فستان مخملي أزرق ثم قال : ((إنه ذو نوعية جيدة ، لن تجد السيدة مثله في السوق ، خذي ، تحسسيه.)) أخذت كارولا تتحسس القماش وتصغي إلى البائع باهتمام مزيف ، ثم اصطنعت التفكير لتقول : ((لقد أعجبني الفستان فعلا ، لكن سيدتي صعبة الإرضاء ، دعني أجب السوق أكثر وقد أعود إليك لأشتريه.)) لاحت خيبة الأمل على عيني البائع وهو يرد: ((حسنا ، كما تريدين.))

خرجت كارولا مغتنمة من المحل ، واتجهت بغنيمتها صوب قلعة الفردوس ، أين استقرت الملكة ووفدها في ضيافة لورد (الروافد) ، اللورد يواخين. قامت الأمة بإخفاء وشم عبوديتها عبر ربط شريط أصفر حول عنقها ، وقد حرصت على أن يتماشى لونه مع لون فستانها كي يبدو كما لو أنه قطعة من ملابسها. لم يكن بإمكانها الدخول عبر الباب الرئيسي ذلك أن جارية وراء الأسوار شيء مستحيل الحدوث ، لذا فقد كان عليها إيجاد طريق آخر للداخل ، كل ما كان عليها اجتيازه هو الأسوار الخارجية ، وبعد ذلك سيكون بإمكانها استعمال الأبواب دون مشكلة. اقتربت من القلعة مرتدية عباءة تخفي بها ملابس الجارية التي سرقتها ، متفادية لفت الأنظار ، نظرت إلى الأسوار متفحصة ، ثم حولت ناظريها إلى الحارسين الواقفين على الباب ، لن يمكنها إقناعهما بأي شكل من الأشكال ، عليها اجتياز تلك الأسوار دونهما ، دارت حول السور الحجري باحثة عن موطئ قدم للتسلق ، ومكان معزول عن الناس ، دخلت بين دغل من الشجيرات ، ثم وجدت أخيرا ما كانت تبحث عنه ، شجرة! بإمكانها تسلقها والعبور إلى الداخل ، كان الحذاءان اللذين سرقتهما من محل آخر

مجاور للذي سرقت منه الفستان لا يصلحان للتسلق ، لذا فقد قامت بنزعهما ، وأمسكت بهما مستعملة فمها ، وتسلقت حافية القدمين ، ففكرت : *جيد. . . الآن لا أبدو كجارية ، بل أبدو كملكة!* كانت تراعي مواطئ أقدامها ، وتتجنب احتكاك ملابسها باللحاء القاسي ، وبحذر وبطء استطاعت الوصول إلى القمة ، لتقابلها مشكلة أخرى ، لم تكن الشجرة بالقرب الكافي من السور. *تبا!* فكرت غاضبة : *كما لو أن مشاكلي لم تكن كافية!*

لم تكن المسافة قصيرة أبدا ، ولم يكن لديها إلا خيار واحد ، أن تقفز إلى حافة السور ثم ترتكز عليه في قفزة ثانية إلى داخل الساحة ، كان من حسن حظها أن السور سميك بما يكفي لترتكز عليه ، لكن سوء حظها تمثل في أن الأسوار عالية عن الأرض. كانت القفزة مستحيلة ، وقد اعترضها مائة احتمال للفشل ، لكنها أعادت التفكير في الأمر ، ووجدت احتمالا وحيدا ، احتمالا يتيما، يقضي بنجاحها . . . تمسكت به بشدة ، وحاولت تذكر ما تعلمته من حركات ، ثم فكرت : *الطيور التي تخشى السقوط ، لا تطير أبدا!* ذلك ما علمها إياه دوكودان، قد يكون الرجل حقيرا ، لكنه ليس غبيا ، انقبضت عضلات أرجلها ، وبدأ قلبها يدق حين أخذت نفسا عميقا ، تحققت من عدم وجود حرس على الجانب الآخر ، ثم جرت عبر الغصن الخشبي وانطلقت في الهواء مقدمة رجلها اليمنى التي حطت على قمة الجدار مثيرة الغبار ، فلمحت المسافة التي تفصلها عن الأرض ، لكن الوقت لم يسعها كي تفكر في ذلك ، إذ استمر زخمها بدفعها إلى الأمام بقوة ، فاستعملت قدمها اليسرى ودفعت نفسها أكثر عائدة إلى الهواء مجددا ، وهذه المرة بقيت فيه طويلا ، إذ أخذت الأرض تقترب بسرعة كبيرة منها منذرة بسقوط مؤلم ، وفور لمس قدميها لها ، انقلبت على ظهرها في شقلبة رشيقة لكن قوية ، مثيرة الغبار حولها ، أحست بالألم ينتقل عبر جسدها،

وحاولت الاستقرار بعد أن أكملت الشقلبة ، لكن الزخم كان أقوى منها ، فاندفعت أكثر إلى الأمام وسقطت على الأرض.

صرخ ظهرها ألما ، واشتكت قدماها بينما جرحت يداها وتمزقت عباءتها ، نهضت بصعوبة لكن بسرعة ، فهي لا تريد للحراس أن يروها على هذه الهيئة ، تفقدت نفسها بحثا عن أضلاع مكسورة أو مفاصل ملتوية ، لكنها وبأعجوبة استطاعت النجاة بالقليل من الخدوش والرضوض التي لا يستطيع أي أحد رؤيتها ، كل ذلك كان بفضل الشقلبة التي أدتها حين حطت على الأرض ، كان قد علمها دوكودان ذلك ، أن توزع قوة الصدمة على كامل جسدها كي تتفادى أثرها ، ثم فكرت في أن سيدها قد علمها بالفعل كل ما تعرفه ، أهذه المخاطرة تستحق بالفعل؟ لكنها عادت لتذكر نفسها أنها ليست إلا مجرد أمة ، وكل ما علمها إياه كان لمصلحته هو وليس حبا فيها ، *قد أشكره لاحقا ، عندما أصبح حرة.* ألقت عباءتها المغبرة الممزقة وخبأتها بين الشجيرات ، ونفضت الغبار عن فستانها الذي سلم هو الآخر بأعجوبة ، ثم ارتدت الحذائين اللذين كانا قد سقطا من فمها حين قفزت ، أخذت نفسا عميقا مجددا ، ثم بدأت السير نحو المجهول.

مشت بوتيرة مسرعة وبرأس منخفض وذهن شارد ، تماما كما تمشي الجواري، إذ هن دائما على عجلة ، وأذهانهن مشغولة كل الوقت بما يجب عليهن فعله. بلغت البوابة الداخلية ، فقابلها حارسان مدرعان برماح وتروس ، واقفين على عتبة الباب ، حاولت الدخول دون أن تعيرهما اهتماما ، لكن رمحيهما تقاطعا أمامها ورمق كلاهما وجهها بنظرات صارمة.

- ((دعاني أدخل.)) قالتها بنفاذ صبر.

- ((أين كنت؟)) قالها أحد الحرس بصوت خشن.

- ((هذا ليس من شأنك.))

- ((إن لم تلاحظي الأمر بعد فنحن حراس البوابة ، وهذا ليس من شأننا وحسب بل هو عملنا الذي نؤجر عليه.)) رد عليها الحارس الآخر بغضب.

نظرت إليهما بحيرة حاولت إخفاءها ثم أجابت : ((الحارسان اللذان قبلكما لم يكونا بهذه الوقاحة.)) لقد خاطرت بهذه الإجابة ، ذلك أنها لا تعرف متى يتناوب الحرس هنا.

- ((إذن فقد أعطيتهما سببا مقنعا ، نود سماع ذلك السبب أيضا.)) أراحها رده ، كانت تلك ضربة حظ ، لكنها الآن عليها التفكير في سبب مقنع ، قلبت بصرها بسرعة بين ملامح الحارسين ثم قالت : ((إنها أمور خاصة بالنساء ، الآن دعني أدخل.)) همت بالدخول لكن الحارس دفعها قائلا : ((وضحي أكثر.)) لم تتوقع هذا الرد منه ، فعبارة "أمور خاصة بالنساء" كانت عادة ما تبعد الأسئلة عنها ، ذلك أن الرجال يجدون فيها من الغموض ما يدعهم يتخيلون أغرب الأشياء ، غير عارفين ما الذي تفعله النساء بالضبط.

- ((يا للوقاحة! كيف أمكنك سؤال ذلك؟)) لم تجد فعلا ما تقوله لذا فخيارها الوحيد هو مماطلته.

- ((أمور خاصة بالنساء ، أي أمور؟ أكنت تلدين أو ما شابه؟)) ثم ضحك مع صديقه وأخذ يفحصها صعودا ونزولا.

استفزتها نظراته ، فصرخت فيه غاضبة : ((أين شهامتك ورجولتك؟ أهذا ما تحمي القلعة منه؟ الجواري العاجزات؟ أهذا ما دربوك من أجله؟ سؤال النساء عن أمورهن الشخصية؟ كم أنت مغوار!))

هم الحارس بالرد ، لكن جسدا ضخما وراءه جعله يلتفت ويعدل وقفته ، فعرفت كارولا على الفور أنه رئيس الحرس ، قال بصرامة: ((ما هذه الجلبة؟))

حنت الأمة رأسها قليلا ثم قالت قبل الجميع : ((سيدي ، إن رجالك لم يدعوني أدخل ، وأصروا على سؤالي عن سبب مغادرتي ، رغم أنني أخبرتهم أنها أمور نسائية خاصة ، إلا أنهما أصرا على انتهاك خصوصيتي.))

اندهش الحارسان من جرأتها ، و أومأ القائد متفهما ، ثم قال بصوته المهيب : ((أهذا صحيح؟))

رد الحارس متلعثما : ((لكن عملنا يقتضي أن نسأل كل شخص . . .))

- ((صمتا!)) قاطعهما القائد موبخا. ((لن أسمع المزيد من هذا ، أدخلاها واعفياني من هذه السخافات.))

- ((أمرك سيدي.)) قالها الحارس وأفسح الطريق على مضض لكارولا ، التي انحنت بوقار للقائد وانسلت إلى الداخل ، لتهتف أفكارها ، وتهلل أحاسيسها ، لقد نجحت في الدخول! لكن نسيما من الخوف هب عليها ، وحرك دواخلها ، إذ سرعان ما تذكرت أن القادم أصعب.

أخذت تتجول بين الأروقة والقاعات غير عالمة أين تتجه ، وكانت كلما مر عليها أحد تظاهرت بحك جبهتها لتخفي وجهها ، لم يلاحظ أحد وجودها في الحقيقة ، ذلك أن الجميع كان مشغولا بشيء ما ، فالملكة إلينورا بنفسها هنا ،

وقد نبضت القلعة بأسرها استقبالا لها ، وأخذت الجواري والخدم يطوفون كالنحل بين أرجاء الصرح العظيم ، ووجدت كارولا نفسها مجبرة على التظاهر بالعجلة هي أيضا كي لا يسألها أحد ولا يلتفت إليها.

دارت عبر رواق ملتو لتسمع جلبة من ورائه ، وما إن التفت حوله حتى لمحت مجموعة من الجواري يأتين ناحيتها مسرعات ، يتبعهن حارسان أكثر بهرجة من اللذين قابلتهما على الباب ، فعرفت أنهما تابعين للملكة بواسطة رمز الأسد الذي نقش على الدروع اللامعة ، ابتعدت كارولا جانبا ، وأخفضت رأسها مادة إليه يدها لتحكه ، لكنها لمحت شيئا سبب ترددها ، كانت هناك ، تمشي بوقار ، وفستانها الحريري الفيروزي يحتك بالأرض مصدرا حفيفا ، رافعة رأسها للأعلى ، ومثبتة عينيها غير متماثلتي اللون إلى الأمام ، وتاجها المرصع يبرق في وقار ، انحنت كارولا حتى لامست خصلات شعرها الأرض ، وحين مرت بها الملكة ، كان كما لو أن موجة من العطور والأطايب تضربها ، وتتغلغل داخل رئتيها ، رفعت ناظريها بحذر ، فلم تلمح القلادة على عنقها ، تسمرت الأمة حتى مرت العاصفة ، ثم نهضت مرتجفة وهي تسأل نفسها : *ما الذي ورطت نفسي فيه؟* لكنها سرعان ما تداركت الأمر وعلمت أنه لا مجال للتراجع ، فهي قد قطعت شوطا طويلا بالفعل.

رمقت السلالم التي نزلت منها الملكة منذ قليل ، ثم استنتجت أن القلادة لا بد وأنها في غرفتها ، فأخذت تصعد الدرجات بثبات كافحت لإبقائه ، و حين وصلت للأعلى ، لم يعد من الصعب معرفة مكان غرفة الملكة ، فالرائحة القوية ميزتها من بعيد ، خطت ببطء نحوها متلفتة حول نفسها ، إذ أخذت دقات قلبها تتسارع وهي ترجو ألا تجد أي شخص بالجوار ، اقتربت شيئا فشيئا ، وأخذت الرائحة تصبح أكثر قوة مع كل خطوة تخطوها ، وحين وصلت عتبة

الباب ، اندفعت من وراءه جارية ، فانقبض قلب كارولا وبلغ عنقها ، وتجمدت مكانها بأرجل مرتجفة ، لكن وبأعجوبة ما ، لم تلحظها الجارية ، وأخذت تعدو بعيدا نازلة السلالم ومختفية عن الأنظار.

تقلبت معدة كارولا وسقطت على الأرض راغبة في التقيؤ ، لكنها نهضت بصعوبة ، وأكملت طريقها شاكرة الإله الذي أنقذها أيا كان. ألقت نظرة حذرة إلى الداخل ، فلم تجد أحدا ، لذا دلفت بسرعة وأخذت تتفحص الغرفة ، سرير وافر بأغطية من الحرير والمخمل ، نافذة كبيرة تتطاير ستائرها بفعل نسائم الصيف ، وخزانة عملاقة مزخرفة بجانبها مرآة كبيرة ذات إطار ذهبي ، وطاولة منحوتة توضعت فيها . . . القلادة! صاحت جوارحها ورقصت دواخلها ، واندفع جسدها نحو غنيمتها ، فالتقطتها بين يديها غير مصدقة لما فعلته للتو ، وأحست بثقلها المفرط ، فتساءلت كيف بإمكان الملكة أن ترتديها طوال الوقت ، وعرفت لمَ تركتها الآن هنا.

تلفتت حولها مجددا ، ثم استعدت للخطوة التالية : الخروج ، عليها الآن أن تخرج بسرعة قبل أن يكتشفوا اختفاء هذه القلادة ، لا يجدر بها أن تضيع الوقت ، فكل دقيقة تحسب ضدها ، همت بالانطلاق واستعدت لأن تتوجه نحو الباب ، وما إن رفعت رأسها ناحيته حتى دلف منه فجأة رجل طويل قوي بشعر فاحم وعينين زرقاوين قائلا : ((أليس من المفترض أن . . .)) وانقطع حديثه . . أخذ يرمق كارولا التي غادر الدم عروقها ، وتصلب جسدها ، حاملة القلادة ومحدقة إليه بأعين متسعة ، قال الرجل باستفهام : ((ما الذي تفعلينه هنا؟)) كانت ملابسه الفاخرة توحي أنه ذو مكانة عالية ، أخفض مقلتيه إلى يدها ، ورمق القلادة بشك ، ثم ضيق عينيه ببطء قائلا : ((ما الذي . . .)) لم تدع له مجالا ليكمل ، إذ ما إن عادت الحياة لجسدها ، حتى انطلقت ناحية النافذة

وقفزت على عمود ضيق كان يربط بين الغرفة والسطح المقابل المفروش بالورود والأزهار ، اندفع الرجل خلفها ، وتردد للحظة قبل أن يتبعها ، فالعمود بعيد عن النافذة ، وضيق جدا ، وأي خطوة خاطئة قد تسبب الوقوع أربعة طوابق إلى الأسفل ، مما يعني الموت المحتم ، اندهش من قدرتها على عبوره بسهولة ، حيث كانت كارولا تجري برشاقة عبره ، وحين وصلت إلى السطح المجاور ، تلفتت وراءها وهي لا تزال تجري ، ففاجأها أن الرجل تبعها بالفعل ، *من يكون؟ أهو محارب مدرب من نوع ما؟* استمرت في الجري والقفز متخطية الحواجز أمامها ، ومارة بالجواري والخدم والحشم ، تلفتت خلفها فلم تجده ، و أيقنت أنها ضيعته ، لكنها لم تجازف بالتوقف ، فعليها الخروج سريعا ، لقد افتضح أمرها ، يبدو أنه بادر بإنذار الحرس ليغلقوا عليها البوابة ، عليها الآن أن تجد طريقا آخر ، دارت حول زاوية فقابلتها السلالم ، انطلقت نحوها بسرعة ، لكن شيئا ما اصطدم بها وأسقطها أرضا . . . لقد أمسكها ذلك الرجل ، إذ مر عبر رواق آخر يؤدي مباشرة إلى هذه الزاوية. انتهى الأمر ، اعتلاها الرجل ممسكا بيديها ومثبتا عينيه الزرقاوين بعينيها ، ليقول لها بحزم : ((لن يمكنك الهرب الآن ، أيتها اللصة!)) كافحته دون جدوى ، كانت الوضعية التي هما عليها أشبه بعشيقين ، حاولت التملص منه دون جدوى ، هي الآن تحت رحمته ، لكن سرعان ما جاء الحرس ، و أخذوها منه بعد أن استخلص القلادة منها ، فكان من الواضح لها أن أمرها قد انتهى ، هي ذاهبة للسجن.

* * * *

رماها الحراس في الزنزانة ، فارتطمت بالأرض المغبرة ، لتتهيج جروحها وتصرخ رضوضها ، ثم أغلقوا وراءهم الباب بقوة. تكورت على نفسها ورغبت

في الاستيقاظ من هذا الكابوس المخيف ، لكنها للأسف كانت الحقيقة ، وعليها تقبلها.

- ((ليس من المفترض أن تكوني هنا.)) قدم صوت عميق من ورائها ، التفتت إليه فإذا به رجل ضخم غطت الندوب وجهه ، كان مسجونا في الزنزانة المقابلة. كرر الرجل : ((ليس من المفترض أن تكوني هنا.))

لم تعرف ما يقصده بذلك ، ولمَ قال ذلك أصلا ، لكنها لم تملك إلى أن تجيب : ((أنت محق.))

- ((أكان ذلك بسبب أنك قمت بشيء ما على نحو خاطئ؟)) عاد الرجل ليسأل.

ضحكت كارولا بسخرية. إنه يظنها جارية ، ثم ردت دون أن تلتفت : ((بل أردت سرقة عقد الملكة.)) لم تر مانعا من إخباره الحقيقة ، فهو على كل حال مسجون آخر ، وغالبا سيشاركها المصير نفسه.

- ((مؤكد أن لك أسبابك.)) فاجأها هذا الرد منه فالتفتت إليه وعدلت جلستها لتقابله ، كان جالسا إلى جانب النافذة الصغيرة ذات القضبان يرمق ما بالخارج أيا كان.

- ((ما الذي يدريك أنت؟)) قالتها بمزيج من الغضب والحيرة ، فقد تمكن كلامه بطريقة ما من استفزازها.

نظر الرجل إليها طويلا ، ثم قال : ((أستطيع استشعار ذلك ، هذا كل شيء.)) كانت ملامحه وبنيته الجسدية توحي بالخطر لكن نظراته ونبرة صوته حين يكلمها كانتا أليفتين بشكل عجيب. أثار الرجل فضولها فسألت عن اسمه ، ليرد : ((كرولن . . .))

سرعان ما انخرطت كارولا في حوار معه ، وسرعان ما انسجم الاثنان وأخذ كلاهما يسرد حياته للآخر ، كانت عباراته مقتضبة وكلامه قليلا ، لكنها أدركت أنها طريقة حديثه على كل حال. أخبرها أنه كان بحارا وحكى لها عن رحلاته ، واستفاض حين بدأ يصف لها ما وراء بحر الظلمات ، كان صوته يسيل حزنا ومعاناة ، وكانت قصته تذرف لها الدموع ، أما عن سبب سجنه ، فهو لأنه حاول الدفاع عن نفسه حين هاجمه أحدهم بعد أن اعتقد أنه قد سرقه ، فمجرد مظهره دفع الشخص لأن يتهمه والحرس لأن يعتقلوه.

ظل الاثنان يتحدثان ، حتى سمعا صوت وقع أقدام الحراس ، فاقترب هؤلاء من زنزانة كارولا وفتحوا الباب قائلين لها : ((الأمير يرغب في رؤيتك.)) أخذوها من ذراعيها ، وقادوها إلى الأعلى بينما يراقبهم كرولن من مكانه بجانب نافذة زنزانته حتى غادروا.

دخلا بها غرفة فخمة ، بها رجال جالسون والمزيد من الحرس ، ميزت بينهم الرجل الذي أمسك بها وعلمت أنه هو الأمير ، كان جالسا في الوسط ، وقد استقر بجانبه شخص آخر يشبهه في الملامح ، غير أن شعره كان ذهبيا ، وعيناه متمايزتان إحداهما زرقاء والأخرى خضراء ، فعلمت فورا أنه ابن الملكة، وبذلك تبينت لها هوية من أمامها ، كيف لم تدرك ذلك من قبل؟
الشخص الذي أمسك بها هو الأمير أيدن ، والذي بجانبه أخوه الأمير إلغار ، أما بقية الرجال فلم تلقي لهم أهمية ، ذلك أن لا أهمية تبدو لهم. توقف الحراس بها أمام المجلس ثم انحنوا ، فانحنت بدورها ، استفتح أيدن قائلا : ((لقد حاولت سرقة شيء من ممتلكات الملكة ، شيء ثمين جدا ، أتعرفين ما عقوبة ذلك؟))

أجابت بصوت واهن ورأس مطأطأ : ((أجل ، يا سمو الأمير.)) كانت تأمل أن تفلح طاعتها بتجنيبها من الموت المحتم.

ابتسم إلغار بمرح ، بينما أكمل أيدن بحزم : ((ما السبب الذي يدفع جارية للإقدام بهذا الفعل المشين؟)) ليعقب أخوه بجانبه : ((لا أظن أنها جارية يا أخي ، لا يمكن للجواري أن يقفزن على الأسطح.)) نظرت إليه بحرص ، كانت عيناه تفحصها بدقة متغلغلة إلى داخلها ، وكان لمعانهما شيئا غامضا ارتجفت لها دواخلها ، كما أن ابتسامته أفصحت عن مكر و دهاء ، حولت ناظريها إلى أخيه ، فكان حازما ثابتا كتمثال حجري.

- ((أجبيني ، لماذا قمت بذلك؟)) قالها أيدن مجددا. فوجدت نفسها في موقف حرج ، اضطرت فيه لأن تحبك قصة مصطنعة ، أظهرت فيها حاجتها ، وحاولت بها استعطافهم ، ورقعت كل ما يمكن ترقيعه حتى تصبح قابلة للتصديق. لم يحرك أيدن ساكنا ، بينما ظل إلغار يبتسم مع كل تفصيلة تضيفها ، وعيناه تلمع بخبث ، كانت تتفاداه دائما كي لا تشعر بالارتباك ، والآن لم تعرف هل اقتنعوا بما قالته أم لا.

نهض الأمير الأكبر فجأة ثم قال : ((سمعت ما يكفي، أعيدوها إلى الزنزانة، سنرى في أمرها لاحقا.)) وبذلك اخذها الجند مجددا ، وقادوها نازلين إلى الزنازين ، أين كان كرولن لا يزال جالسا بنفس الوضعية ، فألقوها في زنزانتها المقابلة له ، وأغلقوها عليها مغادرين مجددا.

- ((إذن؟)) استفسر بصوته الأجش الصديق.

- ((لا أعلم إن أقنعتهم بقصتي أم لا.))

- ((أكانت قصة مقنعة؟))

- ((أظن ذلك ، آمل ألا اكون مضطرة لسردها مجددا ، فقد نسيتها بالفعل.))

*** * * ***

مرت الدقائق كالسنين وهي في تلك البقعة المظلمة ، تعد الحصى وتحاول أن تطل من النافذة عسى أن ترى شيئا ، لكن لا شيء يرى. لم تتبادل الكثير من الحديث مع كرولن منذ أن أعادها الحراس ، لم يكن هناك ما يمكن الحديث بشأنه على كل حال ، فكرت في أنها لو بقيت لمدة أطول فستتحول إلى حجر هي الأخرى. أحست بأمعائها الفارغة تنقبض مطالبة بالأكل ، وفمها الجاف يصرخ مناديا بالشراب ، تساءلت متى يطعمون المساجين هنا ، لكنها سرعان ما تذكرت أن القلعة منشغلة بشيء آخر أهم منها ومن إطعامها.

- ((ألا يطعمونك أبدا هنا؟)) سألت بنفاذ صبر.

- ((لم آكل منذ يومين ، وأظن أن المدة ستطول ، قد أموت غالبا من الجوع.)) قالها ببساطة كما لو كان يتحدث عن الطقس ، فشعرت أكثر بالأسى عليه لكنه أكمل: ((سوف أهرب من هنا ، وسوف تهربين معي.)) نظرت إلى عينيه فلم تلمح إلا الجدية والتصميم ، لم تقل شيئا ، فعاد لينظر إلى النافذة.

شرد ذهنها لفترة ، وبينما هي تسبح في بحر من الأفكار والخطط ، قرقع الباب العلوي حين انفتح ، ودلف منه الحراس مرة أخرى ، ثم اتجهوا صوب زنزانتها قائلين لها : ((الأمير يريد رؤيتك.)) فكرت منزعجة *: آمل ألا يجبرني على سرد القصة من جديد.* قبل أن تغادر نظرت نظرة أخيرة إلى كرولن ، فأومأ لها مبتسما.

قادوها عبر الأروقة إلى الطابق أين كانت غرفة الملكة ، لكنهم لم يكملوا طريقهم إليها ، بل انعطفوا إلى غرفة أخرى أقرب ليدخلوا بها بعد أن أذن لهم من بالداخل بالدخول.

ألقوها في الغرفة ثم غادروا مغلقين الباب ، نظرت حولها فلم تجد أحدا ، وتركت وسط الأثاث الفخم والتصاميم المزركشة لمحتويات كانت أشبه بما لدى الملكة.

- ((ها أنتِ ذا.)) انطلق صوت من خارج الشرفة ، ليتبعه صاحبه ، الأمير . . . كلا ، ليس ذلك الأمير ، بل الآخر . . . الأمير إلغار.

- ((أتعجبك إقامتك الجديدة؟ سمعت أنهم يقدمون الولائم باستمرار.)) قالها وابتسامته الساخرة لا تفارق شفتيه.

شعرت برعشة، ما الذي يريده منها؟ لماذا طلبها إلى غرفته؟ أرعبتها الفكرة، وأعجزتها عن الرد، وأخذ قلبها يدق ، وعضلاتها تتقلص ، لم تعرف ما العمل ، أتهرب أم تخضع؟

- ((ما الأمر؟ اهدئي ، خذي مشروبا ، استرخي.)) ثم صب كأسا من النبيذ وسلمها إياه ، فتلقفته برجفة عجزت عن إخفائها ، لاحظ هو ذلك ، فابتعد وأخذ يفحصها من بعيد.

- ((أتعلمين؟ حين رأيتك لفتتِ نظري ، لديك جمال استثنائي ، قوام ممشوق ، وجه متناسق ، مع لمحة من الفوضوية ، إن هذا . . . مثالي.)) كان يحرك يديه بخفة بينما يتحدث ، وعيناه تلمع بينما يرمقها تلك النظرة المربكة. حاولت الارتشاف من الشراب ، لكن دواخلها أبت وأحست أنها على وشك التقيؤ ،

لاحظ الأمير ذلك فيها ، فرسم ملامح جادة على وجهه وقال بنبرة ثابتة : ((لا أعرف إن تمكنت من خداع أخي بتلك القصة السخيفة ، لكن تلك الحيلة لم تنطل علي ، أعرف أنك أمة أحدهم ، وأن شخصا ما أمرك بهذا.)) ثم تقدم إليها حتى أصبح كل ما تشمه هو عطره القوي ، وكل ما تراه هو قميصه الفيروزي الفاخر ، رفعت عينيها إليه فالتقت بعينيه المتمايزتين ، ومد يده إليها ببطء ثم لمس عنقها ، وهي لا تزال متسمرة تنظر إلى ملامحه ، ليفك الشريط الذي لفته لتخفي وشمها وهناك قال : ((الجواري لا يرتدين مثل هذه الشرائط ، ولا يملكن أوشاما.)) ثم ابتعد عنها بسرعة ، لتخرج من البحر الذي غاصت فيه إلى الواقع الذي ينطوي على التهديد.

أخذ إلغار يتنقل عبر الغرفة باحثا عن شيء ما ، قائلا بنبرة متسارعة : ((لقد قمت بسرقة عقد أمي ، قمت بسرقة عقد الملكة ، أثمن عقد في المملكة كلها ، عقد يساوي أضعاف ثمنك ، بالطبع هي لا تعلم بعد ، لا أحد يعلم ، إلا أنا وأخي وأشخاص لا أهمية لهم ، لكن إن وصل الأمر لها ، أي للملكة ، فلا أظن أنه سيكون لديك الوقت فعلا للندم على فعلتك.)) ثم نظر إليها بأعين متسعة ، جعلتها ترتجف ، ووصل الخوف عندها إلى حدود لا تطاق. أكمل الأمير : ((لحسن حظك أن أخي مشغول بأشياء لا أهمية لها ، ولحسن حظك أيضا أنني لا أعطي أهمية للأشياء التي علي فعلها ، ولحسن حظك مرة ثالثة أنك جميلة.)) ليبتسم بمكر : ((أي أن مصيرك كله تحت يدي الآن ، أنتِ تحت رحمتي ، ما رأيك؟)) ثم توقف منتظرا منها إجابة.

تلعثمت وتأتأت ، ثم همت لتقول مترددة : ((أنا . . .))

لكنه قاطعها بسرعة : ((إن كل ما يفصلك عن الموت هو أنا ، وبالتالي عليك تنفيذ كل ما أقوله ، بإمكانك الرفض طبعا ، لكن صدقيني لن تريدي ذلك.))

رغم أن نبرته كانت ودية إلى حد ما ، لكن كل كلمة كان يقولها كانت تنطوي على تهديد مباشر ، لم يكن يمنحها الخيار بالطبع ، بل كان يفرض رأيه بكل وضوح ، لكن ما ليس واضحا هو رأيه في حد ذاته ، إذ لم تعرف بالضبط ما يريده.

سابقت أنفاسها ، وروضت قلبها ليخرج منها صوت ضعيف يسأل : ((ما الذي تريد مني فعله؟))

ابتسم ابتسامة عريضة ، واتسعت عيناه ليبدو كطفل حصل على هديته بعد طول انتظار ، اندفع نحو زاوية من الغرفة وهم بإخراج شيء ما وهو يقول : ((ما سنقوم به هو . . .)) وسحب شيئا مربعا كبيرا لم تتبين كنهه ليكمل قائلا : ((. . . الرسم!)) وأدار اللوحة ليريها رسمة لامرأة جميلة أبدع في تفاصيلها وأبرز ملامحها ، اقترب منها وسلمها إياها قائلا : ((إنني أقدر الجمال ، وأبحث عنه في كل أرجاء المملكة ، وكلما وجدته أحتفظ به على شكل لوحات ، ما أريده هو المثالية ، لم أجدها بعد لكنني أبحث ، أنتِ جميلة ، لست مثالية ، لكنك جميلة ، وأريد الاحتفاظ بجمالك ، بين لوحاتي ، كل ما أطلبه منك هو أن تجلسي هناك بلا حراك لساعات قليلة ، وسأتغاضى عن فعلتك تلك ، موافقة؟))
نظرت إليه بحيرة ، وهي غير مستوعبة لما قاله للتو ، *أهذا كل ما يريد فعله؟ الرسم؟* شعرت أنه قد قصد إخافتها منذ البداية ، وأنه كان يلعب معها لعبة عقلية ما ، وتساءلت إن كان هذا جزءًا من تلك اللعبة ، وإن كان هناك المزيد منها ينتظرها ، لم تدر بما ترد ، فحثها الأمير قائلا : ((ليس لدي اليوم بطوله ،

اقترب العشاء وسوف يطلبونني للوليمة ، إن أردت حريتك فعليك الاختيار الآن.)) فكرت *: ليس لدي فرصة أخرى على كل حال.* لذا فقد استسلمت له ، وجلست حيث أمرها بينما ارتدى هو ما يشبه المئزر ، و بدأ يحظر الألوان ويمزج الخلطات ، ثم شرع في ضرب الفرشاة على الورق ، أحيانا بضربات قوية كبيرة ، وأحيانا بخطوط هادئة حذرة ، وظلت هي تراقبه بحذر متجمدة في مكانها ، وأخيرا سألها بعد صمت طويل : ((ما هو اسمك؟)) فكرت أن تعطيه اسما مزيفا ، لكنها لم تجد جدوى من ذلك فأجابت بوهن : ((كارولا.)) ابتسم الأمير ورد : ((لديكم أسماء رنانة ، كما لو كانت أغان ، أنتم مزيج من الجنوب والشمال ، تارة تكونون شماليين تعلقون قلائد الرؤوس الثلاث على أعناقكم ، وتارة تغدون جنوبيين تصلون للروح في الهواء الطلق ، أخبريني أيهم أفضل؟))

قالت وقد بدأ التردد والخوف يزول شيئا فشيئا منها ، وبدأت تستعيد نباهتها ، لكن دون أن يغادرها الحذر : ((أنا لا أعرف ، فقد ولدت ونحن تابعون للشمال ، وتربيت على تماثيل الملك إليام العظيم . . . والدك ، الذي حررنا من الجنوبيين . .))

زفر الأمير بملل: ((أوه أجل أجل، أبي عظيم جدا، أليس كذلك؟ من حسن حظنا أنه مات، لكانت قد ارتجت الأرض من شدة عظمته.)) ارتبكت لإجابته ، ولم تدر ما تقوله ، هل قالت شيئا خاطئا؟ لكنه لاحظ تلك الحيرة وقال مغيرا الموضوع : ((دعنا من ذلك ، أخبريني الآن ، من أين تعلمت كل تلك الحركات ، أرى أن أخي تعرق بشدة بسببك.))

ومجددا لم تجد بدا من الحقيقة : ((لقد علمها إياي سيدي.))

- ((يبدو أن سيدك لص محترف.))

وجدتها فرصة لتفضح دوكودان ، لكن شيئا ما منعها من الحديث ، فآثرت الصمت والتجاهل. فلاحظ الأمير ذلك وغير الموضوع مجددا : ((لماذا فعلت ذلك؟ لمَ أردتِ القلادة؟))

- ((كانت ثمنا لحريتي.)) كانت الحقيقة تخرج كالسيل من فمها ، ذلك أنها أحست أنه لا يمكنها الكذب أمامه.

- ((أخبرتك أنها تساوي أضعاف قيمتك ، تلك القلادة تشتري قلاعا.))

سكتت مجددا ، لم يكن بإمكانها أن ترد. فعقب إلغار : ((لكن إن كان ذلك كل ما تريدينه ، فسأوكل أحد حرسي ليشتريك منه ، وبذلك تصبحين حرة ، أنا لست كريما جدا في العادة ، لكني لا أحب رؤية الأشياء الجميلة في الأقفاص ، الطيور الصغيرة ، الحيوانات الجميلة ، لطالما أحب أخي تربية مثل هذه المخلوقات المسكينة ، لكني دائما ما كنت أحررها ، كان يكرهني لذلك ، لكن لم يهمني الأمر مثلما أهمني رؤيتها حرة، أنا لا أحب العبودية ، ولا أحبذ فكرة أن يباع الناس ويشتروا كما لو كانوا سلعة ، لو كنت ملكا لكنت ألغيت مثل هذا الأمر ، لكن لسوء حظكم فأنا الابن الأصغر ، لذا سيكون عليكم تحمل ذلك الجلمود بعد أن يخلف أمي في الحكم.))

* * * *

ظل يخط ويخط على القماش وهي جالسة دون حراك ، مضت دقائق وتحولت لساعات ، حتى ظنت أن هذا لن ينتهي أبدا ، لكنها عادت لتفكر مجددا ، وتعجبت من نفسها ، فقد كانت صباح اليوم تضرب بين الأزقة القذرة ، والآن هي أمام أمير براسيا ، يرسم صورتها بشغف ، شكت في أن يكون ذلك واحدا

من أحلامها المجنونة التي لا معنى لها ، نظرا لكم اللامعقول الذي تعرضت له ، لكن ها هو ذا ماثل أمامها ، وهي ستأخذ حريتها بعد هذا.

استأذن شخص من وراء الباب فجأة ، فجفلت وخرجت من شرودها ، ليجيب الأمير وهو لا يزال يرسم : ((أدخل.)) دخل السائل فإذا هو خادم قال للأمير بصوت ناعم : ((إنهم ينتظرونك في الوليمة يا سمو الأمير.)) ليرد إلغار دون أن ينظر إليه : ((سوف أتأخر ، أخبر أخي أنه بإمكانه أكل حصتي، فأنا مدين له على كل حال.)) انحنى الخادم وغادر بخفة ، فسألت كارولا الأمير : ((ألن يغضب سمو الأمير أخوك ويخبر الملكة؟))

فأجاب دون التوقف عن عمله : ((كلا ، أقصى ما يمكنه فعله هو توبيخي ، لدينا قاعدة ، ما يحدث بين الإخوة يحل بين الإخوة ، أظن أن لديكم قانونا مشابها ، أنتم معشر العبيد.)) أومأت موافقة ، *ما يحدث بين العبيد لا ينبغي أن يصل للسيد* ، إذا ما طرأ شجار فينبغي حله على الفور لأنه إن علم السيد به فسيجلد كلا الشخصين بلا تمييز.

أخيرا وضع إلغار فرشاته ، ثم أخذ يتأمل قطعة القماش أمامه ، فعاد وخط عليها مجددا ثم توقف ، وقام ، شد ظهره وقال مبتسما : ((يمكنني القول أنك تحفة.)) لم تكن تدري أهو يكلمها أم يكلم اللوحة ، ثم نظر إليها مكملا : ((تعالي ألقي نظرة.)) اقتربت منه ووقفت بجانبه ، لترى أمامها صورة كانعكاسها على حين تنظر في الماء ، تعجبت لقدرته على إبراز هذا الكم من التفاصيل ، وتساءلت عن كيفية قيامه بذلك ، التفتت إليه لتجد عينيه المتمايزتين ترقبها مع ابتسامة عريضة قال معها : ((أرى أنها أعجبتك.)) أحست أن عليها قول شيء ما ، فردت : ((إنك . . . إنك بارع حقا.)) اتسعت عيناه لوهلة ثم ابتعد

عنها مسرعا في أرجاء الغرفة وهو يقول : ((لا وقت لدي الآن ، علي الذهاب ، أوزار!)) ليدخل على الفور خادم شاب مراهق ، تساءلت كارولا أكان يقف وراء ذلك الباب منذ البداية ، فرمى إليه إلغار سرة من النقود وأخذ يقول : ((خذ هذه ، ورافق الجميلة حيث سيدها لتشتريها منه ثم دعها تذهب ، مفهوم؟ وخذ معك اثنين من الحرس.))

قال المراهق بثبات : ((مفهوم.)) ثم أومأ إليها لترافقه فخطت خلفه مغادرة الغرفة ، وحين التفتت وجدت الأمير يرتدي معطفه ويهم بالمغادرة هو أيضا.

كان الطريق مزدحما بالخدم والحشم الذين كانوا يروحون ويجيئون وكانت كل القلعة تدب دبيب النحل استعدادا للوليمة ، فحامت الأطباق و الكؤوس في كل مكان ، وطارت الكراسي والطاولات وجرت الجواري حاملات الزينة ، بينما حثت كارولا الخطى بينهم وراء المراهق الذي يبدو وكأنه يعرف جيدا أين يذهب ومتى يتفادى الاصطدام بالناس ، فشق لها طريقها متبوعة بحارسين كانا يمشيان وراءها ، مصدرين قرعا لم يكن بالإمكان سماعه نظرا لكثرة الضجيج ، وحين وصلت إلى الطابق السفلي بجانب الزنازين تذكرت كرولن ، وفكرت متسائلة *: ما الذي سيحل به يا ترى؟* كان آخر ما قاله لها هو أنه سيهرب معها ، لكن ها هي ذي خارجة ، وهو لا يزال هناك ، شعرت بالقليل من الذنب ، لكن محيطها الخارجي لم يسمح لها بالتفكير في الأمر أكثر.

هم الفتى بالخروج من بوابة القصر لكن الحارسين أوقفاه سائلين عن السبب ، وما إن لمحا كارولا حتى تذكراها ، كانا هما اللذين قابلتهما مسبقا ، فقال أحدهما بسخرية : ((ما الذي يجري الآن هنا؟ أنتِ مجددا ، أتحضرين كل هؤلاء الآن ليساعدوك في أمورك الخاصة؟)) ليضحك صديقه ، لكن أحد

الحارسين الملكيين وراءها تقدم إليهما ، وقابلهما معتليا قامتيهما ثم قال بصوت خشن : ((تنح جانبا.)) نظر إليه الحارس الساخر من أسفل ثم رد : ((لست أتلقى أوامري منك.)) وقبل أن يكمل جملته أزاحه الحارس الملكي بضربة واحدة أسقطته أرضا ليعقب الخادم : ((إنها أوامر من الأمير.)) ثم غادر بخطى خفيفة تبعه الجندي بأقدام تقرع الأرض ، وتبعتهم كارولا فرمقت الحارس الساقط بسخرية وصنعت وجها مضحكا ثم غادرت متبوعة بالجندي الملكي الآخر.

قادت الثلاثة عبر الأزقة والشوارع ، كانوا ثابتي الملامح ، لا تحركهم واقعة ولا تجفلهم حادثة ، فكرت : *خطوات قليلة تفصلني عن حريتي ، خطوات قليلة تفصلني عن الحلم!* لم تصدق نفسها ، بدا الأمر وكأنه ضرب من الخيال.
اقتمحت قلعة الفردوس ، استطاعت تجاوز الحراس ، رأت الملكة ، اقتحمت غرفتها ، سرقت قلادتها ، تم اعتقلوها ،أودعوها السجن ، تكلمت مع أميرين ، وها هي الآن وخطوات قليلة تفصلها عن حريتها. بدا لها الأمر ضربا من الجنون ، كل هذه الاحداث جرت في يوم واحد ، يا لغرابة الحياة!

اقتربت بهم من مقر دوكودان ، وأحست برعشة خفيفة ، لكن وجودهم معها أمدها بالقوة فأكملت حتى واجهت الباب ، وانطلق من يحرسه لإبلاغ الزعيم ، وسرعان ما انفتح أخيرا ، لتدخل مع رفقتها إلى الداخل ويقابلهم سيدها في مكتبه الوافر ، اندهش واتسعت عيناه لما رآهم ، ثم حياهم بارتباك قائلا : ((بم أخدمكم أيها السادة الكرام؟)) كان يتحاشى النظر إليها ، لكنها ثبتت عينيها عليه باستحقار.

تقدم خادم الأمير ثم قال على عجل : ((أهذه الأمة تخصك؟)) رمقها دوكودان متفاجئا من نظراتها المتعالية ثم أجاب بود مصطنع : ((يبدو ذلك ، هل سببت لكم المشاكل؟ أعذرني يا سيدي إن كانت قد فعلت شيئا ما ، بإمكاننا إصلاح الأمر و . . .))

- ((كلا ، لم آت لذلك.)) هكذا أوقف الخادم التاجر عن الحديث ، فأخذ الأخير يقلب بصره بين الحراس ثم عاد إليها بنظرات مستفسرة ، ليكمل الفتى : ((لقد جئت بأوامر من الأمير إلغار لشراء هذه الأمة منك ، بكم تبيعها؟)) تماما كما أرادت ، فقد وقع الخبر كالصدمة على رأس دوكودان ، الذي أخذ يتلعثم في حيرة ، فابتسمت كارولا لتزيد ارتباكه سوءًا ، لاحظ الخادم ذلك ، فألقى بالصرة إليه وسأله بنفاذ صبر : ((هل هذه ستكون كافية؟)) أمسك التاجر بالصرة وأخذ يعد نقودها بذهن شارد ، ثم أجاب على مضض : ((أجل.)) ولكم كانت فرحتها عارمة حين وقع ذلك العقد بخضوع تام ، وأقر رسميا لها حريتها.

أومأ الشاب برفق وغادر رفقة الحرس والمعتقة ، التي ظلت تلتفت وراءها متلذذة بمشهد الزعيم المصدوم ، مشهد شفى غلا كان مدفونا طوال سنين عمرها. الآن هي حرة ، الآن هي إنسان.

سلمها الخادم الوثيقة وصرة من النقود قائلا : ((يمكنك الذهاب ، أنت حرة الآن ، أنصحك بإزالة ذلك الوشم ، سيكون الأمر مؤلما لكنك لا تريدين التجول في الأرجاء به.))

تحسست ما سلمها بيدها ثم أجابت : ((أشكرك جزيلا ، بلغ شكري لسمو الأمير إلغار ، وبلغ أسفي أيضا لسمو الأمير أيدن.))

أومأ الشاب مجيبا : ((سأفعل ذلك.)) ثم غادر مع الحارسين باتجاه القصر.

* * * *

كانت عملية إزالة الوشم مؤلمة إلى أبعد الحدود ، فهي حرفيا تزيل جلدها ، ولم تدخر تلك الشمطاء أي جهد في تجنيبها الألم ، كان كل ما يهمها هو تأدية عملها ، وقد فعلت ذلك على كل حال ، وبذلك اضطرت كارولا لوضع شريط آخر على عنقها ، ضمادة ، لتغطية الجرح كي يندمل.

اشترت حصانا فتيا ذا لون كستنائي ، خط السواد جبهته و أصبغ قوائمه ، كان لديها ما يكفي من المال لتشتري المزيد من الأشياء أيضا ، لكنها الآن آثرت الخروج من هنا ، بعيدا عن دوكودان ، والملكة ، والأمراء والحراس ، فأمرت حصانها ليأخذها إلى الأمام ، إلى المجهول ، إلى عالم تكون فيه حرة.

عدى الحصان عبر السهول الشاسعة ، التي جردها الصيف من الأعشاب ، التفتت وراءها فرأت المدينة تختفي شيئا فشيئا وراءها ، وأخيرا توارت القلعة وراء تل ، وأصبحت من الماضي ، وبينما تستمتع بذلك المنظر الواعد إذ بمجموعة من الفرسان يفسدون المشهد ، قادمين بسرعة نحوها ممتطين أحصنة أسرع من حصانها ، لم يكن هناك احتمال آخر ، إنهم قادمون نحوها.

حثت حصانها أكثر لكنه لم يستطع العدو أسرع ، وسرعان ما لحقت بها العصابة وتبينت هوية أعضائها. حاصرها اثنين من عبيد دوكودان عن اليمين وعن الشمال ، كما قاما بسد الطريق وراءها ، أما من الأمام فقد تقدم الزعيم شخصيا بحصان أسود قوي وابتسامة أشد سوادا ثم قال بشماتة : ((انظروا انظروا من قرر التجول وحده في البراري ، ألا تعلمين أنها ملآى بالمفترسين؟)) ضحك العبدان.

- ((أنا حرة الآن ، لا سيادة لك علي.)) قالت بتحد.

- ((أوه ، أعرف ذلك ، لكنني أيضا حر ، ولا سيادة لكِ علي أيضا.)) ثم أشار لتابعيه فترجلا بسرعة ليمسكا بأطراف ملابسها و يسقطاها أرضا ، تمكنت من التشبث بهما كي تخفف أثر الوقعة ، لكن مع ذلك سقطت ، وسقطت بشدة ، شرعا في ضربها محاولين كسر أضلاعها ، لكنها تكورت على نفسها ، تصرخ بخفوت ، فقاطعهما الزعيم ، وقرر تولي أمرها بنفسه.

- ((أنتِ حرة؟ حسنا ، أنا أيضا حر ، أنا حر في ضربك!)) واستهدف ظهرها ، فأحست بكسر ، وصرخت مجبرة. ((أنا حر في كسرك!)) وداس على سيقانها ، فأصدرت أنة. ((أنا حر في قتلك!)) وهذه المرة استهدف رأسها فأفقدها حسها بالأصوات والأضواء وأخذت الموجودات تدور حولها ، والأصداء تتمايل والحواس تتلاشى ، لم تعلم ماذا حدث عندها ، لكن كل ما تذكرته هو أنها أفاقت لتجد هيئة عملاقة بجانبها ، وأجسادا مرمية على الأرض ، وحين حاولت النهوض آلمها جسدها فصرخت ، ليلتفت الرجل الضخم ويترك الخيول قادما باتجاهها ، وحين نظر إليها تعرفت عليه ، إنه كرولن . . . لقد هرب من ذلك السجن ، وجاء لإنقاذها.

دهش عازف الناي وحدق بذهول إلى الرجل الجالس بالزاوية ، كانت عيناه قد تخلت عما فيهما من عدوانية ، وأصبح يبدو أكثر لينا ، الآن وقد عرفوا قصته ، فهموا لم كان يحدق بهم منذ البداية.

أكملت كارولا الآن بنبرة أكثر دفئا : ((جبنا معا أنحاء القارة بحثا عن مستقر ، ووجدناه هنا ، عائلة مسكينة لا حامي لها ، ولا معين لهم على شؤونهم، عشنا معهم لفترة ثم قررنا فتح خان ، وها نحن هنا.))

كانت عينا تروبادور تلمع بالشرر ، وقد عرف عازف الناي أن صديقه قد وجد الإلهام ، دائما ما تسفر تلك النظرات عن تحف فنية ، قال المغني بصوت يملأه الشغف : ((مسكينة تبحث عن حريتها ، سيد قاس ومجرم سافر ، عقد أغلى من ممالك ، أمراء وقلاع وملكة براسيا ، وفارس شهم ينقذك من المخاطر ، هذه لن تكون أغنية ، بل ستكون رواية عزيزتي.))

- ((كما قلت، لا أريد أن يسمع أحد عن ذلك ، خصوصا الملكة.)) قالتها ثم نهضت لتكمل خدمة الزبائن.

- ((لا تقلقي ، أعرف كيف أتصرف ، فبعد كل شيء هذه مهنتي.)) ثم بدأ يدق على خشب آلته الموسيقية ، ثم مرر أصابعه عبر الأوتار باحثا عن لحن مناسب ، كان عازف الناي يراقب النادلة وهي تنتقل برشاقة بين الطاولات ، فاقتربت من تروبادور لتقول : ((أنا جادة ، أعرف أن أغانيك تنتقل كالنار في الهشيم ، لا أريد للأمير أيدن أن يعرف أني لا أزال موجودة في عالمه.))

- ((لا تقلقي ، سوف أغير الأماكن وبعض الشخصيات . . .)) ثم أغمض عينيه ليكمل : ((ما رأيك أن أجعل القصة تدور في الجنوب ، أنت تشبهين الجنوبيات على أي حال.)) ابتسمت منصتة باهتمام ثم حثته قائلة : ((وماذا أيضا؟))

- ((ستسرقين بدلا من ذلك . . . صولجانا ، أجل ، صولجان سلطان مملكة سلدان ، وتتعرفين فيها على ابنه ، لديه ابن أليس كذلك؟))

رد عازف الناي : ((كلا ، لديه ابنة.))

- ((تبا.)) طرق تروبادور رأسه ، فضحكت كارولا وهمت بالمغادرة ، إلا أن المغني هتف : ((هناك ذلك الفارس الجنوبي ، ما اسمه ، ذلك المقلب بذي الألف عشيقة.))

- ((السيف المخضب . . . أجل أتذكره ، لكن نسيت اسمه . . . ساروبان . . . سونابار . . .)) ليقاطعه صوت ثقيل مبحوح : ((ساردبار.))

- ((أجل.)) كان ذلك هو الاسم الصحيح الذي عجز عازف الناي عن تذكره ، نظر إلى صاحب الصوت ، فإذا به ذلك الرجل المسن الذي كان جالسا بجانبهما يصغي إلى الأغاني والقصص ، كان الشيب قد أشعل شعره ، بينما اكتسى وجهه بأطلال لحية بيضاء لم يدعها تنمو ولم يحلقها أيضا ، كان فكه قويا ، وكتفاه عريضين ، نظر إليهما بأعين زرقاء استحال بياضهما أحمر لسبب من الأسباب.

أكمل تروبادور ما كان يقوله : ((أجل ، إنه مشهور بعشيقاته المتعددة ، كما يمكنني أيضا تضمين مهارته ، ما رأيك أن أجعله يقاتل سيدك ، سيكون قتالا ملحميا.))

- ((هراء!)) قاطعه المسن فجأة.

- ((اعذرني؟)) قال تروبادور مستفهما ، ثم دار إليه.

- ((قتال ملحمي؟ هذا هراء ، لن يصمد ثانية أمامه ، أتعرف من هو ساردبار؟ إنه رجل يمكنه قتال جيش بأكمله ويده اليسرى مربوطة.)) بدا المسن ثملا قليلا ، لكن قوله اتسم بالجدية والحزم.

- ((أوه ، نعم سمعت بذلك ، وسمعت أيضا أن الإله الابن قد هبط من السماء ليساعد الملك إليام في استعادة (الروافد) ، الناس يميلون بعض الأحيان إلى المبالغة ، يحبون خلق الأساطير ، ومعظم تلك الأشياء عبارة عن خرافات لا أكثر.)) ثم أتبع المغني كلماته بابتسامة لكيلا يشعر محدثه بالإهانة.

لكن المسن ظل ثابت الملامح ، ليقول بيقين قاطع : ((لقد كنت في الجيش الذي حرر (الروافد)، ويمكنني أن أؤكد لك أنني لم أر الابن في أي مكان ، أما ساردبار ، فقد قابلته ، وقاتلته ، ذلك الرجل ليس ببشري ، يقولون في الجنوب أن به جِنة.))

- ((جِنة؟)) تساءل أحد الجنود الذين كانوا يلعبون الورق وراءه.

- ((أجل ، إنه نوع من الأرواح السحرية التي يؤمنون بها في دينهم ، يقولون أن لها قوى خاصة ، وأن بإمكانها أن تسكن الأجساد البشرية.))

- ((لقد أثرت اهتمامي حقا ، أتقول أنك قابلته؟)) كان واضحا الآن أن المسن قد استحوذ على اهتمام تروبادور ، إذ أدار كرسيه وواجه الرجل ثم أنصت إليه بحرص حين شرع يتكلم : ((أجل ، كان ذلك منذ خمس عشرة سنة ، وكان لا يزال شابا في ذلك الوقت ، لم تصل شهرته إلى الشمال بعد ، إذ لم يتعد كونه

جنديا بسيطا حينها ، وأظن أن تلك الواقعة هي التي خلدت اسمه ، وجعلت منه الأسطورة الذي هو عليه الآن .))

- ((لقد ملكتني الآن بكلماتك ، أرجوك احك لي القصة ، كلي آذان صاغية ، لكن قبل ذلك ، هل لي باسمك أيها السيد النبيل؟))

- ((لا أعرف إن كنت قد سمعت بي من قبل ، اسمي هارلوك. . .))

هناك لمع شيء ما في عين عازف الناي ليقول فجأة : ((صياد الرجال؟)) ليبتسم هارلوك ابتسامة عتيقة قائلا : ((يبدو أنك لا تزال تذكر كنيتي.))

- ((بالطبع ، فقد تربيت على قصص بطولاتك ، في (الروافد) وبعيدا في الجنوب.)) كان عازف الناي يتذكر جده وهو يحكي له عن هارلوك صياد الرجال، الذي قاد سرية كاملة من جيش إليام لاستعادة (الروافد) ، كما قاد حملة نحو الجنوب قام فيها بغارات أرست الرعب في قلوب الأعداء.

رد المسن بنبرة يشوبها الحزن : ((أجل ، بطولاتي . . . لكنهم لم يخبروك هذه القصة ، حين توقف الناس عن سرد حكايات صياد الرجال ليحتفوا بمجد السيف المخضب ، اجلس يا بني ، سأرويها لك.))

السيف المخضب

قبل خمس عشرة سنة ، في مملكة سلدان :

امتدت الرمال الذهبية على مسافة أميال عنهم في كل الاتجاهات ، و استولت الشمس على مكان في السماء مشعة بوحشية على ما تحتها من المخلوقات والموجودات ، فوجد هارلوك نفسه في بحر من الكثبان ، وقد نال الجوع والعطش منه نصيبا كبيرا ، لكنه رفض الاستسلام لهذه الأرض الغريبة مرددا في داخله *: لن أموت إلا على أرض مغطاة بالثلج.*

بعد أن استولوا على أرض (الروافد) ، لم يرد المعبد العظيم بالمدينة المقدسة أن يقف عند ذلك الحد ، فمع رفض الملك إليام التوغل أكثر في الجنوب ، تم إرسال حملات منفصلة مدعومة من قبل الكهان العلويين ، هدفها هو الاستيلاء على أراض الأعداء ، ونشر ديانة الرؤوس الثلاث. وقد كان هارلوك صياد الرجال أحد قادة هذه الحملات ، كان قد أرسل مع خمسين مقاتلا ، استولى بهم على عشر قرى ، وضم إليه من ضم من أهلها ، ليرتفع العدد إلى سبعين جنديا ، ورغم هذا التقدم الهائل ، إلا أنه لا يضع ثقة في هؤلاء الوافدين الجدد ، فما الضامن أنهم لن يخونوه؟ فهم بعد كل شيء قد خانوا قراهم التي ربتهم ، وبصقوا على اليد التي أطعمتهم.

التفت إلى رفاقه الذين بدت عليهم آثار الإرهاق ، وقد احمرت بشرتهم البيضاء بفعل الشمس بالرغم من تغطيتهم رؤوسهم ووجوههم ، ولمح بينهم السكان الأصليين الخونة ، الذين انضموا إليه ، لم يبد أنهم بحال أفضل أيضا،

ثم وجه انتباهه إلى الجمال التي يركبونها ، وحسد قدرتها على التحمل ، ثم إن فكرة عبثية قد واتته : *ترى إن فتحت سنم جملي ، أيمكنني التغذي على ما فيه؟ أيمكن أن يوجد هناك ماء أو شيء من هذا القبيل؟* كان بإمكانه سؤال دليله الذي أخذ يقودهم عبر الصحراء ، لكنه لم يرد أن يعتقد الصحراوي بجهله ، ويستجلب عليه المهانة والسخرية ، كما أنه لا يثق به كثيرا ، فهم يمشون لأيام تحت جحيم هذه الشمس ولم يصلوا بعد لأي وجهة تذكر ، *ربما هو يريد قتلنا ، يريد تجويعنا هنا حتى الموت ، مضحيا بنفسه في سبيل وطنه.* أغمض هارلوك عينيه ، ثم سأل الدليل بلغة سلدانية ركيكة وصوت مزمجر : ((كم بقي لنا؟)) كان قد تعلم القليل من تلك اللغة خلال السنتين التي تواجد فيهما هنا ، ومع ذلك كان يعلم أنها أعقد من أن يتقنها أي شمالي.

- ((القليل.)) لم تكن في نبرة الدليل أي علامة على المعاناة أو الكلل، مما استفز هارلوك كثيرا ليرد : ((لقد قلت ذلك البارحة واليوم الذي قبله أيضا ، ألعابك لن تنطلي علي أيها السلداني ، إن كان هذا كمينا فسوف أتأكد من أنك ستتعذب شر عذاب ، أتفهم؟))

- ((لم تجر الحكمة أن يهدد الرجل من كانت حياته بين يديه.)) كان لإجابته هدوءًا أثار غضب صياد الرجال.

- ((أنت تلعب بأعصابي أيها الجنوبي ، إن لم نصل إلى وجهتنا بحلول الغد ، سنستبدل رأسك مكان راياتنا.))

ابتسم الدليل بثقة ليرد : ((بل سنصل.))

ساعات وساعات من المشي ، وقد مالت الشمس قليلا من فوقهم معلنة عن قرب العصر ، بدأت تخيل لهارلوك واحات وبحيرات أمامه ، فحاول إغماض

عينيه لكي يتخلص من السراب ، لكنه استدرك : *إن غفلت لحظة ، فربما يقتلونني.* دار إلى رجاله ، فاستشعر فيهم الوهن ، فمع مرور الوقت ، بدأت الفروقات تظهر بين الشماليين والسكان الأصليين للصحراء ، وقد سبب هذا لهارلوك انزعاجا واضحا ، *رجالي متعودون على الشتاء ، الجبال موطنهم والثلج موطئهم.* استدعى صياد الرجال ساعده الأيمن بإشارة منه وأخذ يكلمه بخفوت مستعملا لغته الشمالية : ((عليكم ألا تفقدوا تركيزكم ، نحن في أراض غريبة ، ومحاطون بهم ، لو أرادوا الانقلاب علينا فسيكون ذلك عليهم سهلا.))

التفت القائد الموكل إلى الجنود ، كانت جلودهم تتقشر من شدة الجفاف ، بينما لمعت البشرة السمراء للسلدانيين وكأنها تعكس أشعة الشمس عنها ، كان الفرق واضحا ، أولئك مهيؤون لمثل هذه الأجواء ، لقد خلقوا لأجلها. عادت نظرات القائد الثاني إلى قائده ليقول : ((ما باليد حيلة ، لا يمكننا مقاومة الحر ، وأخشى أنه إذا استمرينا لأكثر من يومين ، فسوف نبدأ بالسقوط الواحد تلو الآخر.))

- ((ذلك ما يريدونه ، إن استمر الأمر إلى يومين بالفعل فسنضطر لقتلهم ، و أكل لحومهم.))

- ((أرجو ألا يؤول الأمر إلى ذلك ، لا أظن أنهم أشهى من العقارب والأفاعي ، كما أن مشكلتنا الآن ليست في المأكل ، إن مخزوننا من المياه ينفذ بسرعة.))

- ((مُرهم برشفتين كل يوم.))

- ((ذلك ما نفعله ، حتى أن بعضنا يشرب أقل ، لكن ومع ذلك لن يستمر مخزوننا لأكثر من اليومين الباقيين.))

زم هارلوك شفتيه المتشققتين ثم قال : ((إن كنا سنهلك ، فسنقتلهم أولا ، لقد أمهلت ذلك الدليل إلى الغد ، وإن لم نصل لأي مكان ، فسنعدمهم غدا ليلا.))

أجاب الساعد الأيمن بإيماءة بسيطة ثم تراجع إلى الجنود ليحثهم على المضي ، بينما أخذ هارلوك يفكر : *أي شياطين دفعتني للقبول بهذه المهمة؟ ربما لم يكن ذلك هو القرار الصحيح.* استذكر يوم رأى العريضة المعلقة على معبد قريته ، متضمنة نداء الكهان العلويين بالمدينة المقدسة ، *أي فتى قادر على حمل السلاح ، وعامر قلبه بالإيمان ، فلينطلق مع الابن لتكريم الأب وبناء مملكته الجديدة.* كان الخطاب مليئا بالعبارات المحمسة ، فاندفع الشباب وفودا لتلبية النداء ، وعين هارلوك على الفور قائدا لشجاعته التي قدمها حين استعادة (الروافد) ، فكان من رواد الحملات الأولى التي باركها الكاهن الأعلى بنفسه ، لكن كان الوقت قد فات حين وصله الخبر ، إذ أغار بالفعل على قريتين وتوغل كثيرا حين بلغه أن الملك إليام قد أمر بإيقاف الحملات ، وتبرأ منها ، واعتبر جنودها خارجين عن القانون ، حينها كان من الواضح أن براسيا قد وقعت معاهدة ما مع سلدان ، وكان من الواضح أيضا أن المعبد العظيم قد تخلى عنهم ، تاركا إياهم تحت رحمة الشمس والرمال ، أين لا أب يحكم ، ولا أم ترحم ، ولا ابن يشهد ، هذه أرض إله آخر.

لمح من بعيد تحته أفعى تنزلق على الرمل ببطء ، كانت طويلة سميكة بشكل نادر ، فاشمأزت نفسه منها ، وعلم تماما ما هو على وشك الحدوث ، وبالفعل ، صاح أحد السلدانيين ثم قفز رفقة رفاقه عن جمالهم وأخذوا يقتربون منها بحرص حاملين الرماح ، وسرعان ما قاموا بإحاطتها وأغلقوا عليها جميع المنافذ ، كانت الأفعى في البداية تريد الهرب عبر غمر نفسها تحت

الرمال ، لكن المهاجمين ظلوا يلكزونها ويستفزونها حتى قررت الرد عليهم ، وحين ارتفعت عن الأرض مهددة إياهم ، نال الصيادون مبتغاهم وقطع أحدهم رأسها بحركة خاطفة ، أتبعها رفاقه بالتهليل والاحتفال ، ستكون تلك عشاءهم الليلة ، فكر هارلوك وهو يشاهدهم : *انظر إليهم ، ليسوا إلا مجموعة من الهمج* ، لكنه سرعان ما استدرك متسائلا : *لكن . . . أليس هذا ما نفعله أيضا حين نذهب لاصطياد الدببة؟*

حل العصر ، ودنت الشمس أكثر من الأفق ، وزادت زرقة السماء مقابلة لمعان الرمال. كان دليل المجموعة يقودهم بكل ثبات ، لم يبد عليه التأثر بالطقس ، ولم تبد عليه آثار الجفاف. ظل هارلوك يراقبه بحرص ، ومع كل خطوة يخطوها جمله ، كان حنقه يزيد أكثر فأكثر ، و يزيد معه يقينه أن فخا ما قادم لا محالة. ظل الدليل راكبا على جمله البطيء لساعات دون حراك ، لكنه التفت فجأة كاسرا نغم حركاته ، و موقظا غرائز هارلوك الذي بلغ سيفه ببطء ، ولامست يداه المقبض استعدادا لاستلاله حين لاحظ الانحراف المفاجئ في مسار الدليل وإسراع جمله.

- ((أنت! توقف! أين تظن نفسك ذاهبا!)) حرك صراخه المجموعة وهم الجميع لسحب أسلحتهم تأهبا للخطر القادم ، بينما تبع صياد الرجال الرجل الذي اعتبره الآن فريسته بعد أن علم أنهم قد وقعوا في الفخ فعلا.

استمر الدليل في الإسراع حاثا جمله أكثر متسلقا الكثيب العملاق ، ففكر هارلوك : *قد يكون هناك جيش وراءه أأسرع أم أعود أدراجي؟* وقبل أن يتخذ قراره كان السلداني قد وصل بالفعل إلى الأعلى وأخذ يصيح :

- ((ها هي ذي! ها هي ذي! قرية دون سفح الجبل!))

أوقف هارلوك جمله مرتبكا ، *أهذه خدعة ما؟* واقترب ببطء من الدليل المتوقف ثم مد بصره ليلمح جبلا صخريا قد استقرت تحته قرية مبانيها من حجارة ، و معالم الحياة قد دبت فيها ، نظر بعينين متسعتين نحو السلداني ، فابتسم هذا الأخير بمكر دون أن يقول شيئا ، التفت هارلوك إلى رجاله الذين توقفوا أسفل الكثيب غير مدركين لما يجري ، ثم استل سيفه وأخذ يهتف : ((قرية! إنها قرية!)) فتبعته صيحات الجنود واحتفالاتهم ، وتبعوه نحو الأعلى غير مصدقين لما يرونه ، مصلين للرؤوس الثلاث وشاكرين رحمة الأم التي بلغتهم في أعماق الصحراء.

التفت هارلوك مجددا إلى الدليل قائلا : ((كدت أن توقف قلوبنا ، وتجعلني أوقف قلبك بالمقابل ، نجوت برأسك أيها الدليل.)) كان ذلك بمثابة شكر لم يرد صياد الرجال التصريح به.

- ((كلا ، بل لي أن أحوز أكثر.)) وابتسم ابتسامة منتصرة.

- ((لك ذلك.)) ثم شرع في إسكات رجاله لكيلا يسمع صوتهم وينكشف أمرهم.

اجتمع هارلوك مع قادته وممثلي الكتائب السلدانية العميلة وأخذوا يناقشون خطة الإغارة ، كان جيشه الصغير مقسما إلى سبع كتائب ، تتكون كل منها من عشر رجال ، أربع منها شمالية بقادة شماليين ، وقد قسمهم حسب المقاطعات التي أتوا منها ، ينسق بينهم ساعده الأيمن ، القائد الثاني ، أما الثلاث كتائب الباقية فهي تتكون من السلدانيين ، الذين تم تقسيمهم أيضا حسب قراهم ومناطقهم بقادتهم ، ينسق بينهم قائد أعلى لهم وإن لم يكن بمكانة الساعد الأيمن ، وكلهم تابعون للقائد الأعلى هارلوك.

تحلق القادة حوله ، وشرع صياد الرجال في الحديث بلغته الشمالية : ((إنها قرية كبيرة مما يعني أن فيها رجالا كثيرين ليدافعوا عنها ، رغم أن لنا عتادا أحسن إلا أن لهم الأفضلية كونها أرضهم، كما أنهم في حالة جسدية أفضل كذلك.))

- ((أتقترح أن نتنكر كتجار؟)) قالها القائد الثاني ، ساعد هارلوك الأيمن.

- ((كلا ، ما معنا لا يصلح اعتباره كبضاعة ، كما أن أخبار غاراتنا قد وصلت حتما إليهم ، سيعرفوننا فور رؤيتنا ، فرصتنا الوحيدة هي ضربهم ضربة مفاجئة ، ستشلهم الصدمة لوقت كاف يسمح لنا بالتوغل أكثر ، وحين يدركون ما يحدث أخيرا ، نكون قد سيطرنا بالفعل على القرية.))

ترجم قائد السلدانيين الكلام إلى رفاقه ، ليرد أحدهم بلهجة لم يفهمها هارلوك ، ويشرح القائد : ((بإمكاننا أن نهاجم ليلا عبر التخفي وراء ذلك الجبل الصخري ، والانطلاق من ورائه حين ينتصف الليل.))

- ((جيد ، لكن ماذا عن عملية التوغل نفسها؟ نحن لا نعرف الطرق والبيوت.))

عاد الجنوبي لمشاورة رفاقه ثم رد قائلا : ((سنرسل كشافا منا يستطلعها ويأتينا بأخبارها ، سيزودنا بخريطة شاملة عن الطرق والمسالك.))

هم هارلوك ليقول شيئا لكن الدليل قاطعهم فجأة وتدخل ليقول باللهجة السلدانية الوحيدة التي يفهمها صياد الرجال : ((أنا آتيكم بخبرها.))

- ((كلا ، دورك قد انتهى أيها الدليل.))

- ((إنكم في حاجة شخص لا يثير الشبهات ، ولا يستجلب الشك ، وأنا قد دخلت هذه القرية من قبل ، و هم يعرفونني ، فأرسلوني آتيكم بخبرها.))

رمقه هارلوك طويلا ، أهو مستعد لأن يضع حياته مجددا بين يدي هذا الشخص؟ هو لم يخيبه في المرة السابقة ، هل الأمر يستحق المخاطرة؟ وقبل أن يحسم قراره قال قائد السلدانيين : ((قد يكون محقا ، خطتي اقتضت أن يقوم أحد رجالي بالتخفي ، أي أنهم إن كشفوه فسينتهي أمرنا ، أما هو فيستطيع التجول دون مخافة أن يراه أحد.))

قلب هارلوك الفكرة في رأسه جيدا ، ثم التفت إلى ساعده الأيمن يسأله بلهجة شمالية لا يعرفها غيرهم : ((ماذا ترى أنت؟))

- ((الاعتماد عليه مخاطرة ، لكن إرسال أي شخص آخر مخاطرة كذلك ، لا تنسى أن كلهم جنوبيون ، ما الذي يجعل الجندي أكثر وفاءا من الدليل؟ أرى أن نرسله هو ، فحظوظه أكثر.))

أومأ هارلوك بالإيجاب ثم حسم الأمر : ((حسنا أيها الدليل ، ستذهب أنت ، إن أديت مهمتك على أكمل وجه ، فسوف أمنحك أجود الغنائم.))

ابتسم الدليل قائلا : ((حسن جدا.))

كانت الشمس قد توارت وراء الأفق واستحال ضوؤها إلى خط ضئيل أخذ يتقلص حتى تلاشى ، وتزينت السماء بمصابيح تراقصت حول هلال بهي يجوب القبة متبخترا ، وتحته سكنت قرية أظلها جبل توارى وراءه رجال ملثمون يجلسون في صمت ، لم يشعل أي منهم نارا ، خوفا من انكشاف مكانهم، إذ تحلق البعض حول جثة أفعى أخذوا يسلخونها ليأكلوها نيئة ، بينما اكتفى الآخرون بخبز يابس أمضى دهرا في رحالهم ، وأما الباقون فقد استلقوا محاولين اختطاف حصص من النوم ، وأعلاهم جلس هارلوك ، يترقب بصمت عودة الدليل. كانت القرية تلوح له من تحت الجرف الذي استقر عليه ، بدت

ساكنة مسالمة ، هادئة لا تصدر ضجيجا ، *قريبا ستملأها الصرخات وتغرقها الدماء.* هكذا فكر صياد الرجال في داخله ثم تأمل حاله ، *غريب في أراض غريبة أتى من أقصى الشمال كي يعتدي على أناس في أوطانهم* ، أزعجته الجملة فغير صياغتها : *بل بطل أتى كي يرد ثأر أجداده ويسلب أعداءه كما سلبوا هم موطنه* ، لكنه أدرك أن الجملة الآن قد أصبحت خاطئة بشكل مضحك ، فإن كان بطلا ، لمَ تبرأ ملكه منه؟ ولمَ تخلى المعبد عنه؟ كما أن أجداده ووطنه يكمن بعيدا في الشمال في (جبال الصقيع) ، وليس في (الروافد)، ثم أفعل الجنوبيون مثل ما فعل هو معهم حينما استولوا من قبل على قلعة الفردوس؟ زفر هارلوك بهدوء ، ثم حسم الأمر برأسه : *لمَ أحب جعل الأمر كما لو كان محيرا لدي؟ أنا لا أكترث ، فقلبي مات مذ أن أصبحت صياد الرجال ، وأنا ممتن لذلك.*

بعدما توغل الليل برهة بعد انتصافه ، وتسرب الشك إلى قلوب الرجال ، وبلغ المكان الذي كان يوما ما قلب هارلوك ، ظهر الدليل أخيرا من وراء الجروف ، وقاد جمله مقبلا إليهم ، فدبت الحركة في المجموعة ، واستيقظ من كان نائما ، وعلموا أن الوقت قد حان.

- ((ما الذي أخرك هكذا؟)) سأل هارلوك الدليل بحدة.

- ((القرية كبيرة ، وطرقها متشعبة.))

- ((ستكون تلك مشكلة.)) قالها الساعد الأيمن لصياد الرجال.

- ((ليس تماما . . .)) رد الدليل مفكرا ، ثم أخذ يشرح بالتفصيل خارطة القرية غير المنتظمة ، إذ تتكون أساسا من ثلاث أجزاء تفصل بينها ثلاث طرق رئيسية ، وفيها توجد المناطق الحيوية ، كالدكاكين ، والحانات وبيوت

الأشراف ، أما ما وراء ذلك ، فليست إلا بيوتا صغيرة مبنية على أطرافها ، يتم الوصول إليها بطرق أضيق وأكثر وعورة.

- ((إذن ، فبسيطرتنا على الطرق الرئيسية قد نسيطر على القرية بأكملها.))
قالها الساعد الأيمن لهارلوك منتظرا إجابة ، فحك هارلوك ذقنه الكثيفة ورد : ((قد يجتمع أهل البيوت البعيدة و يخرجون لقتالنا ، لكن غالبا سيكونون مشتتين، فكل القوة تكمن في الأشراف ، هم أصحاب المال وأصحاب العدة ، وفور قضائنا عليهم ، ستسقط القرية تلقائيا.))

ظل الرجال يخططون ويناقشون الهجوم ، حتى استقروا على رأي واحد : تقسيم القوات إلى ثلاث كتائب مختلطة بين الشماليين والجنوبيين عبر الطرق الرئيسية للقرية ، وقتل كل رجل يستطيع القتال ، مع جمع المستضعفين في المركز ، أين سيستعملونهم كرهائن ضد أي هجوم قد يتعرضون له.

بدأ الهلال بالدنو واستعد للأفول معلنا عن قرب الفجر ، فانطلق جيش هارلوك من وراء الصخور هابطا نحو القرية المسكينة ، وهم يحثون جمالهم لتسرع الخطى عبر أرض رملية تتخللها الأحجار ، وحين وصلوا إلى الأعتاب استل هارلوك صياد الرجال سيفه ثم رفعه في الهواء ملوحا ، لم تكن هناك أي صيحة حرب ، ولا صرخة تخويف ، ذلك أن الجميع قد أمر بالتزام الصمت.

انتشرت الكتائب ، واتخذت طرقها ، فسلك قائد الشماليين الطريق الأيمن ، بينما اتجه القائد الجنوبي نحو اليسار ، ليقود هارلوك الكتيبة الرئيسية عبر الطريق الأوسط الكبير ، كان دخولهم صامتا ، لكن سرعان ما استحال هذا الصمت إلى عويل.

بدأ الجنود في اقتحام المنازل فدوت صرخات النساء ، وبكاء الأطفال ، بينما سالت دماء الرجال وعمت الفوضى الأرجاء. ركل هارلوك باب إحدى البيوت ، فتهشم وسقط إلى الداخل ، كان المنزل أكبر من أقرانه ، فدل ذلك على انتمائه لأحد الأشراف. دخله مع اثنين من رجاله ، فراحوا يفتشون الغرف وينهبون ما بها ، أما هارلوك ، فكل ما كان يريده هو الدم ، لذا فقد قصد مباشرة الغرفة الموصدة بالزاوية ، والتي لا يمكن أن تكون إلا غرفة نوم ، توقف قليلا أمامها ثم وبحركة قوية بكتفه ، حطم الباب واقتحمها مشهرا سيفه ، لكنه حين التفت حوله ، وجدها فارغة. كانت الغرفة فعلا غرفة نوم ، لكن لا أثر لأي شخص داخلها ، فكر في نفسه : *ربما غادر أهله من قبل ، والبيت فارغ حقا ، إن كان ذلك صحيحا ، فيجب عدم إضاعة الوقت فيه.* خرج إلى الهبو ثم نادى رجاله آمرا إياهم بالخروج ، فامتثل الجنديان وهما بالانصراف ، وقبل أن يخرجا بالفعل تعثر أحدهما بحبل كانوا قد ألقوه على الأرض حينما أثاروا الفوضى ، وسقط مصطدما بالجدار الجيري الذي تهشم وكشف وراءه عن عائلة كاملة كانت متوارية وراءه ، كان الأب يحمل سيفا ، فطعن به الجندي الساقط على الفور لحماية زوجته وطفليه الصغيرين ، كانت الطعنة قاتلة فصرخ الأب المسلح برعب ثم وجه سيفه نحو هارلوك وتابعه ، اندفع الجندي غاضبا انتقاما من موت صديقه ، لكن صياد الرجال أوقفه بإشارة منه ، وتوجه بالحديث إلى الأب صاحب المنزل :

- ((لقد قتلت أحد رجالي . . .)) ثم أخذ يتقدم ببطء وسيفه في يده ، فصاح الأب مهددا : ((حسبك! وإلا لأسفكن دماءكم!))

تجاهله هارلوك ووجه ناظريه نحو الطفلين الصغيرين ، كان أحدهما بعمر الثامنة ، بينما بدا الآخر بالسادسة ، كلاهما كان يرتجف ، شاخصين بأنظارهم نحوه ، يحدقون فيه برعب ، كما لو كان وحشا مفترسا.

- ((ابناك جميلان جدا ، هما لا يشبهانك.)) ثم وجه أنظاره إلى الزوجة ، فارتجفت ليقول : ((بل يشبهانها هي ، اوه أجل ، تلك العينان ، والبشرة الصافية ، والشعر الناعم . . .)) لكن الرجل لم ينتظر البقية ، واندفع نحو هارلوك وهو يصيح بغضب ، ملوحا سيفه تحت وقع صرخات الأم والأطفال ، كان الرجل بارعا حقا ، فقد التقى سيفه مرات عديدة بسيف هارلوك ، لكن سوء حظه قد منحه خصما جبارا ، استطاع تجريده من سلاحه ، وأقحم النصل في أحشائه ، لينطلق عويل العائلة ، ويندفعوا نحو الأب بيأس ، لكن قابلهم جندي هارلوك ، وضرب الصغيرين بعنف مفرط ، ثم أخذ الزوجة من شعرها وكان على وشك السماح لنفسه أن يصبح حيوانا أكثر مما هو عليه بالفعل ، لكن استوقفه صياد الرجال بحزم : ((إياك وفعل ذلك! الأوامر واضحة ، خذها وطفليها إلى مركز القرية ، وقتنا ضيق ، هيا!)) لم يكن بإمكان الجندي الرفض ، فامتثل مكرهًا ، وقبل مغادرته أضاف قائده إليه : ((اذهب إلى النبالين وأخبرهم أن يتخذوا مواقعهم.)) أومأ المأمور ، ثم انطلق ليقود العائلة نحو محشرها ، أما هارلوك فظل يراقب الرجل المحتضر ، الذي أخذ يردد شيئا ما وسط أنفاسه المتقطعة ودماءه المتدفقة ، قرب أذنه ليسمع ، فوجدها ترانيم دينية ، ليقول له بهدوء : ((لا تقلق ، نحن لن نؤذي عائلتك ، لقد قاتلت بشرف.)) صمت الرجل برهة ، ثم وجه ناظريه إلى هارلوك ، كان الغضب واضحا على ملامحه ، وقد تأكد ذلك أكثر حينما بصق بصقة دامية على وجه صياد الرجال ، ثم غادر هذه الحياة إلى مجهول ما في انتظاره. مسح هارلوك ما على وجهه ، ثم سأل نفسه

: *لمَ قلت له ذلك؟ لمَ قررت فجأة أن أكون نبيلا؟* ثم خرج من المنزل ليرى المشهد أمامه ، عشرات البيوت تحترق ، ومئات الصرخات اخترقت أذنيه في آن واحد ، بينما تطايرت الدماء في كل مكان ، هناك ابتسم بهدوء وأخبر نفسه : *الشرف . . . يا لها من مزحة سمجة* ، ثم توقف قليلا ليكمل : *ربما استحققت تلك البصقة بالفعل ، لقد كنت أسخر منه.*

هجت القرية ومجت ، وسيق أهلها إلى وسطها ، تقودهم السياط والرماح ، وشتائم بلغة لا يفهمونها ، وسرعان ما احتشدوا جميعا متدافعين في بقعة واحدة ، أين أخذت أصوات الأطفال والنساء تتنافس في النحيب والبكاء ، بينما حاول المستضعفون من الرجال أن ينالوا بألسنتهم ما لم يستطيعوا نيله بأياديهم ، لكن قوة السيف أجبرتهم على الخضوع.

التحق هارلوك أخيرا بفرقه الثلاث التي اجتمعت بمركز القرية ، وأخذ يعاين الرهائن بصفة مستعجلة ، ثم توجه إلى جنوده آمرا إياهم بالاصطفاف والتنظيم ، إذ اجتمع من لم يبلغوه من القرويين وخرجوا لقتالهم ، وأخذوا يمشون محتشدين ناحية المعتدين مسلحين بما في بيوتهم من سيوف حرب قديمة ووسائل يستعملونها في الصيد.

رمق هارلوك الحشد المتوجه إليه ، وأخذ يفكر بينما يعاينهم بحرص : *معظمهم لا علم له بأساسيات القتال ، غالبا فهم لم يتخذوا أي خطة للهجوم ، كل ما يفعلونه هو الاندفاع المباشر ، كان بإمكانهم استغلال أفضلية الأرض لصالحهم، لكن مع ذلك لا تزال لهم اليد العليا.*

تقدم خطوتين إلى الأمام ، ثم رفع عينيه متفقدا البنايات حوله واتخذ وضعية استعداد حاملا سيفه أمامه. لكن الحشد توقف بجانب المباني

المحيطة غير متعدين إلى المركز ، ففكر هارلوك *:ألديهم خطة ما؟* ليخاطبهم : ((أخرجوا لنا رجالكم.)) كان يريد استفزازهم ليتقدموا إليه إذ لم يرحه موقعهم ذلك. رفع أحد رجال الحشد المهاجم يده وقال بصوت عال : ((أيها المعتدون ، كونوا رجالا وأعتقوا النساء والأطفال ، ما هكذا تخاض الحروب!))

ضحك هارلوك ورجاله ، ورد عليهم بسخرية : ((لكننا لم نأت لنخوض حربا ، بل أتينا لأسر النساء والأطفال!))

استل قائد القرويين سيفه وقال : ((والروح ليجرين سيفي على أعناقكم ولتشربن الأرض دماءكم.)) ليتبعه البقية ويصرخون ملوحين بأسلحتهم ، وهناك ابتسم هارلوك وقال لهم بتحد : ((وماذا ستفعلون؟))

لم يرد عليه أحد ، فظن أنهم سيكتفون فقط بالصراخ والتهليل ، لكن حينما أخفض قائدهم يده ، علم أن لهم ردا آخر ، إذ فجأة ودون أي سابق إنذار ، ملأت الأسهم السماء وأمطرته وجنوده مستهدفة كل ما تحتها. حين أدرك هارلوك أخيرا ما يحدث ، علم أن لا درع له يحميه ، فتكور على نفسه في الأرض حاميا مناطقه الحيوية بيديه آملا أن ينقذه إله ما ، لكن ساعده الأيمن كان أسرع بديهة من الآلهة ، إذ اندفع نحو قائده حاميا إياه بدرع صدئ ، لاح فيه وسط الخدوش والأوساخ شبح رسم لدب شرس غاضب الملامح.

حين مرت عاصفة النبال ، خرج هارلوك من تحت درعه بعينين متسعة ، وعضلات منقبضة ، إذ لم يتوقع هجوما جريئا وقويا كهذا ، *رعاة الجمال هؤلاء يستطيعون التفكير بالخطط* ، نظر وراءه فرأى عددا معتبرا من جنوده على الأرض ، بعضهم ميت ، والبعض الآخر يولول جراء جروحه ، لكن ما لاحظه أن خط السهام توقف قبل الوصول إلى الرهائن ، ولذا فقد انحصر مده فقد على

أولئك الذين وقفوا أمام الأهالي، وكل ما عدا ذلك لم يصله الهجوم ، هنالك ازداد غضبا وقال : ((ما هذا؟ أتقولون أنكم لا تكترثون لمصيرهم؟ أتريدونهم قتلى؟ تريدون مني إبادتهم؟ حسنا ، أعيدوا الكرة وسوف تسبحون في دمائهم)) لتنطلق الصرخات من جانب الأهالي أتبعتها سياط الجنود.

رد قائد القرويين بحزم : ((سأقطع رأسك قبل أن يرتد إليك طرفك.)) ليتبعه صوت من بين الأهالي الأسرى ، كان لرجل أعرج أخذ يصيح : ((للروح درك يا باليقار! لتذق أعداءنا الويل!))

لكن ذلك كان أكثر من أن يتحمل هارلوك ، فقد بلغ غضبه مبلغا يفوق التخيل ، لذا صرخ على الفور : ((اقتلوه!)) فاخترق رمح جسد الرجل وأرداه قتيلا في لمحة عين، لتنطلق صرخات ونحيب وعويل ، ويجفل قائد القرويين المهاجم.

- ((أتظنني ألعب لعبة هنا؟ أتظن تهديداتي كلها من فراغ؟ حسن ، أردت العنف؟ ستنال منه الكثير.)) خرجت هذه الكلمات محملة بكميات رهيبة من الغضب ، وبدا هارلوك في تلك اللحظة وحشا بحق ، وحين رأى قائد القرويين ذلك رفع يده مرة أخرى وقال : ((النبال.)) فاستعد رجاله للإطلاق مرة أخرى ، وتوارى رجال هارلوك وراء الأهالي مستعملين إياهم كحاجز ومستعدين لوابل آخر من الأسهم ، بينما توجه القائد الثاني ، ساعد هارلوك الأيمن نحوه بدرعه ، وحين انتظر الكل الضربة ، قاطع الجو ولد خرج من الحشد المأسور وانطلق باكيا إلى صياد الرجال وهو يصرخ : ((لأقتلنك! لأقتلك!))

توقف الجميع وأخذ يراقب المشهد بصمت ، بينما أخذ الرهائن في الصياح والنداء على الطفل ، لكنه كان مصمما وكله غضب على الثأر لأبيه. نظر هارلوك

إلى الصبي القادم نحوه ، ثم إلى القرويين المهاجمين ، وهناك فكر بسرعة : *هم لا يريدون الإطلاق.* فاشتم رائحة فرصة ، وقرر استغلالها.

وصل الطفل إلى صياد الرجال ، وبدا له صرحا عظيما يجب اختراقه ، كان سيشرع في ضربه ، إلا أنه أحس بيد عظيمة تمسك شعره وتجره بالقرب من الهيكل الذي استهدفه ، ثم أحس بشيء بارد على عنقه.

كان هارلوك ممسكا الطفل من شعره ، واضعا سيفه على رقبته ، مواجها قائد القرويين الذي انفعل متراجعا ، وتعالى الضجيج وراءه ، فابتسم صياد الرجال ، وعلم أنه قد فاز بهذه الحرب الذهنية.

- ((تظنني أمزح ، أليس كذلك؟ ما زلت تريد الهجوم؟ حسن ، افعل ، هيا مر نباليك بإطلاق نبالهم ، في النهاية سيكون لدينا الكثير من الجثث في هذه الساحة ، وقليل منها سيكون لنا.)) كان صوت هارلوك ينضح بالشر ، فعرف قائد القرويين أن الأمر قد تعدى الحدود ، فقال : ((ما الذي تريده؟ تريد أموالا؟ أعطيناك ، تريد مؤونة؟ زودناك ، تريد مأوى؟ أويناك.))

- ((كلا ، دعنا لا نتسرع في الأمر ، لنبدأ ببطء ، خطوة خطوة ، والخطوة الأولى هي أن تلقوا أسلحتكم وتتقدموا إلى هنا.)) كان في موقف قوة يضمن له قول ذلك.

التفت القائد إلى رفاقه القرويين ثم أجاب : ((إن ما تطلبه من المحال.))

صرخ الطفل بين يدي هارلوك ، فضربه مسكتا إياه ثم قال للقروي : ((أنت لا تملك خيارا ، كما أن هذا ليس طلبا.))

سكت القائد برهة ملتفتا إلى رجاله ثم عاد ليرد : ((وما الضامن أنكم لن تقتلونا.)) *تلك هي! فكر هارلوك ، نلت منه!*

- ((قد أكون سفاحا ، لكنني لم أنكث قط وعدا.)) ثم أمسك بقلادة الرؤوس الثلاث التي يعلقها تحت قميصه وأكمل : ((والآلهة شاهدة على ما أقوله.))

نظر إليه عدوه مطولا ثم قال : ((آلهتك لا تعني شيئا لنا.))

- ((لكنها تعني شيئا لي ، وإنه وعدي الذي تريده.)) ثم قبل التماثيل على القلادة قائلا : ((بحق الأب الذي يحكم الموجودات ، و الأم التي ترحم المخلوقات ، والابن الذي يشهد في السماوات ، إنني أنا هارلوك ابن تفورين أقسم أني لن أؤذي أيا منكم إن استسلم.)) ثم أطلق الولد من بين يديه فجرى عائدا إلى قومه ، وألقى صياد الرجال سيفه على الأرض ، فاتحا ذراعيه لقائد القرويين.

مرر القائد أنظاره على رجاله ، و حدق في الأسرى مطولا ، ثم تقدم نحو الساحة متوجها إلى هارلوك بخطوات بطيئة متزنة ، ووقف أمامه مشدود القامة وعيناه تقابل عيني عدوه ، ثم ألقى بسيفه على الأرض قائلا : ((أحسب أن وعدك وعد رجال.)) ليجيب هارلوك : ((هو كذلك.))

واحدا واحدا ، بدأ الشماليون يرمون سيوفهم ، فتوالت أصوات القرقعة وتعالى صداها في الساحة وسط صمت الجميع ، وأخيرا تجرد كل جنود هارلوك من أسلحتهم ، وواجهوا مهاجميهم بثبات متوقعين المثل منهم. وفعلا ، بدأ جيش القرويين يتقدم نحو الساحة فردا فردا ، رامين أسلحتهم وواقفين في صفوف انتظمت وراء بعضها البعض ، وسرعان ما أصبح كل من في الساحة أعزل دون سلاح.

قلب قائد القرويين عينيه حول كل شيء ، ورمق الكل بنظراته الفاحصة ، ثم توجه بالحديث إلى هارلوك قائلا : ((ها قد لبينا طلبك ، فلتفِ أنت بوعدك.))

- ((أجل ، طبعا.)) ثم التفت إلى جنوده ورمقهم مطولا ، ورفع يده ليومئ إليهم إيماءة خفيفة ، ثم التفت مجددا إلى القروي وصاح فجأة بلغته الشمالية : ((النبال!))

حدث كل شيء بسرعة ، ففور صيحته تلك ، انخفض هارلوك أرضا وتشقلب بعيدا ممسكا بسيفه على الأرض ، ومثله فعل جنوده ، أما حماة القرية ، فقد تجمدوا في أمكنتهم دون فهمهم لما يجري ، ووسط صدمتهم تلك ، خرج من نوافذ البيوت المحيطة بالساحة رماة سهام لقموا أسهمهم وأمطروا بها المجموعة الواقفة ، إذ كانت الأوامر التي تلقوها هي أن يلزموا تلك الأماكن في انتظار سماع الإشارة باللغة الشمالية ، ولم يكن بإمكانهم إصابة أي شيء خارج دائرة الساحة المركزية لذا فقد كان على الجيش المستهدف أن يخطو إلى الداخل ليصبح ضمن مجال رميهم.

تساقط الرجال كالذباب ، وتناثرت دماءهم في كل مكان ، ولم يسلم من ذلك المصير إلا من كان حظه عظيما. . . لفترة قصيرة. إذ لم يضيع الشماليون أي وقت وانطلقوا تحت هتاف هارلوك بسيوفهم نحو من تبقى من القرويين ، ليقوموا بتصفيتهم ومحوهم تماما.

كان قائد حماة القرية من الناجين ، وممن استدرك نفسه سريعا بعد الصدمة ، ففور رؤيته لصياد الرجال وجنوده منطلقين نحوه التقط سيفا من الأرض ، واستعد للقتال ، وما إن رآه هارلوك حتى توجه إليه قاصدا رأسه.

- ((لقد أقسمت بآلهتك! أوَ تحنث بقسمك؟)) قالها القائد غير مصدق لما يحدث.

- ((نحن قتلة ، قمنا بفظائع عدة ، فما الذي سيمنعني من نكث قسم سخيف! أنت تعلم جيدا أننا مجرمون ، أنت وأنا ، كل من شارك في أي معركة يعد مجرما ، قاتلا ، فلمَ الاختباء وراء قناع سخيف نواري فيه خطايانا ونسمي أنفسنا شرفاء ، لا وجود للشرف في الحرب أيها الجنوبي ، وأنت تعلم ذلك ، الحرب خدعة ، وقد وقعتَ في شراكي.))

- ((فلتسقط روحك المدنسة!))

رقصت السيوف وغنت تحت وقع صرخات الجنود ونحيب النساء. ضربة من هنا ، صدة من هناك ، هارلوك يهاجم وتارة يدافع ، ونفس الشيء يقوم به قائد القرويين. كان كلاهما بارعا ، فبدا سيفاهما وكأنهما يستمتعان بالنزال ، إذ أخذا يطلقان الشرر كلما التقيا ، وغنى كلاهما أغنية كلها صرير وقعقعة. أما الرجلان ، فقد أخذا يروحان جيئة وذهابا ، غير بادية الغلبة بينهما ، والعرق يقطر من أجسادهما ويلمع تحت الضوء الخافت للشمس الذي يمهد لإشراقها. خطوة هنا ، خطوة هناك ، لفة هنا ، سحبة هناك. بدا الرجلان وكأنهما يرقصان ، رقصة موت ستكون الأخيرة بالنسبة لأحدهما. في ذلك الوقت ، كان الشماليون قد صفوا رجال القرية ، وقتلوا الكثير منهم ، مع فرار القليل النادر بعيدا ، وأسر البعض بعد استسلامه. كان الكل يشاهد السجال منبهرين بمهارة كليهما ، حتى النساء أخذن يبكين بصمت خوفا من اعتراض المشهد بما لا يليق ، فقد كانت قلوبهن وقلوب قومهن معلقة في هذا القائد المغوار الذي عرفوه صيادا ماهرا وبطل حرب قدير ، ورغم إدراك الكل أن فوزه في هذا النزال لن يعني أي شيء وذلك لانفراده وسط جنود الشمال ، لكنهم أملوا أنه قد يعطيهم شيئا من الأمل ، بقتل هذا المعتدي الذي قتل أهاليهم.

استمر النزال طويلا ، أطول من اللازم. وبدا التعب على كلا الرجلين ، إذ بدأت تنسل منهم بعض الحركات الخاطئة والوضعيات المكشوفة ، لكن الإنهاك منع كليهما من استغلال هفوة الآخر في الوقت المناسب ، شعر ساعد هارلوك الأيمن بالقلق وأراد التدخل لإنهاء الأمر ، لكنه علم أن صياد الرجال سيعتبر فعله هذا من الجرائم التي سيعاقب عليها حتما ، فلا أحد يحرم صيادا من صيده.

تراجع قائد القرويين شيئا فشيئا ، وأخذ يلهث بينما يتلقى سيفه ضربات متوالية سريعة ، كان يعرف أنه لن يفوز في معركة التحمل هذه ، لذا فقد قرر تأدية حركة أخيرة يضع وراءها حياته بأكملها ، ليعتمد بذلك فقط على رشاقة خصمه وما مدى التعب الذي تعرض له.

أخذ نفسا ، وعدل وضعية قدمه اليمنى. وحين ضرب هارلوك ، استشعر القروي فرصته ، فمال بسيفه مسايرا الضربة غير مقاوم لها وتملص من نطاق ضربة خصمه ، وحينها سحب سلاحه من تحت الآخر ، فاحتك النصلان مصدرين شرارة وصوتا مزعجا ، وحينما تحرر سيفه ، وجه القائد ضربة قوية بكلتا يديه نحو بطن هارلوك ، كان المستحيل عليه تفاديها ، وبذلك شعر القروي أن الأمر قد قضي ، لكن حدث ما لم يكن في الحسبان . . . إذ قام هارلوك بحركة غير متوقعة نافت قواعد القتال ووضعت الجميع في دهشة ، فحرك ركبته ووجهها نحو ما بين رجلي خصمه ، في حركة سريعة قوية ، ليصرخ القائد وتضعف قبضته وبالتالي ضربته ، وحين ارتطم سيفه بخصمه ، انحرفت الضربة عن موقعها الصحيح ، ولم تسبب فيه إلى جرحا بسيطا ، أما هو فقد اعتلاه الألم وأصيب بالدوار ، ووسط ضجيج الأسرى وصدمتهم ، سقط رأسه بسيف هارلوك، وأخذ جسده يرتجف حتى ارتمى في الاتجاه المعاكس.

نهض صياد الرجال منهكا ، ورمق صيده بفخر متحسسا الإصابة التي لحقت به ، لم تكن بالشيء الذي يذكر. ثم التفت إلى رجاله الذين أخذوا يصيحون ويحتفلون ، وسط نحيب الأسرى وبكائهم على ضياع أملهم وموت بطلهم بتلك الطريقة الشنيعة ، أخذ البعض منهم يصرخ واصفا هارلوك بألقاب مثل : عديم الشرف ، والحيوان ، والكلب القذر ، ومنعدم الرجولة ، وما إلى ذلك. لكنه نظر إليهم نظرة مزدرية إذ بدوا له مثيرين للشفقة ، سذجا ، أغبياء. وتجاهلهم مبتعدا ليطالب بإحضار المأكل ، وأهم من ذلك : المشرب. خمر ما بعد القتال.

* * * *

صبت الخمور ، وعقدت الولائم ، وأجبرت النساء على الرقص تحت وقع أنغام سلبت حريتهن وقدمتهن سبايا للغزاة الشماليين. كان هارلوك يتوسط المجلس وقد امتلأ بطنه بالطعام والشراب وثمل عقله إلى الحد الذي يجعله منتشيا دون أن يفقد انتباهه. كانوا يحتلون منزل أحد الأشراف ، أكبر وأفخم منزل في القرية ، وأخذ هو ورجاله يحتفلون بصخب بعد أن أحكموا سيطرتهم على المكان.

كانت الغنائم قد جمعت بأحد المنازل بانتظار أن يتم توزيعها ، حلي من الذهب والفضة ، أوانٍ وأسلحة ، مفروشات وملابس ، وحتى الأنعام والمواشي. أما الأهالي فقد تم حبسهم بانتظار أن يتم استعمالهم كعبيد.

في منتصف الغرفة أين كانت النساء يتمايلن مرغمات تحت وقع ضربات العود والسياط ، تقدم من بينهن رجل جنوبي هزيل اعتلت الابتسامة وجهه ، وما إن رآه هارلوك حتى حياه بحرارة وتقدم إليه قائلا : ((تعال انضم إلينا ،

أنت تستحق ذلك.)) كان القادم هو دليلهم الذي قادهم عبر الصحراء إلى هذه القرية.

- ((أرى أنكم مستمتعون.)) قالها ورمق الراقصات الحزينات بنظرة فاحصة.

- ((أجل ، أجل ، وهذا كله بفضلك ، كنت فعلا خير دليل لنا.)) كان من السهل عليه قول ذلك وهو ثمل ، وربما لم يكن ليقولها لولا ذلك.

- ((بالفعل ، بالفعل . . . لكنني أتيت هنا لأناقش موضوع الـ . . . غنائم.)) ثم انتظر رد هارلوك ، لكن الأخير اكتفى بأخذ رشفة من شرابه منتظرا البقية ، فأكمل الدليل : ((لقد اتفقنا أن أكون أول من يغنم بينكم ، وأن أختار غنيمة من أجود ما يوجد.))

رمقه هارلوك مطولا ، بوجه جامد وملامح صارمة اختفى منها أثر الشرب ، فارتجف قلب الدليل للحظة ، لكن سرعان ما بدد صياد الرجال خوفه بضحكة ودية قال بعدها : ((بالطبع ، بالطبع ، أظننت أنني سأخدعك مثلما فعلت مع ذلك القروي الغبي؟ لا تقلق ، نحن أصدقاء الآن ، وأنا دائما وفي لأصدقائي.))

ارتاح الدليل وأطلق بدوره ضحكة ثم انضم إلى المجلس وشاركهم الوليمة. لم يكن يفهم أغلب ما يقولونه ، لكن كلما ضحكوا ، ضحك هو الآخر ، وكلما سكتوا سكت ، وكل ما يدور في ذهنه هو غنيمته المنتظرة.

رفعت الصحون وجمعت الأكواب ، واسترجع الرجال قواهم بعدما أمضوا كامل النهار في الراحة والاسترخاء ، وحان الوقت الذي انتظره الكل ، وقت توزيع الغنائم. اصطف الجيش أمام المنزل الذي حوى الكنز ، وأخذوا يتدافعون

وقد وضع كل منهم قطعة نصب عينيه ، لكن لم يسمح لأي أحد الاقتراب ، ليس قبل أن يأتي قائدهم هارلوك.

شق صياد الرجال طريقه بين الأجساد ذات الوجوه التي ترقبته بشغف وطال انتظارها لتسعد برؤيته أخيرا ، جاء ومعه الدليل ، يمشي بفخر ويتباهى كالطاووس أمام حشد الرجال. اعتلى هارلوك مكانا تحت شمس العصر وواجه جنوده قائلا :

- ((أولا ، قبل أن يأخذ أي منكم أي شيء ، فإن أول من سيختار غنيمته هو دليلنا ، فقد أثبت أنه أهل للثقة ، وهو السبب في مكسبنا هذا ، لذا فهو من سيبدأ وبعدها سيأتي دوركم حسب مساهمة كل واحد فيكم.))

بدا البعض منزعجين ، بينما تقبل البعض الآخر القرار ، لكن لم يعارضه أي أحد وأخذوا ينتظرون الدليل كي يختار غنيمته. خاطبه هارلوك بعدما عرض أمامه كل الغنائم : ((اختر ما يعجبك ، بشرط ألا تتعدى المعقول من حصتك.))

قلب الدليل ناظريه بين أكوام الذهب والفضة التي عرضت أمامه ، فقد كانت كل ممتلكات أهل تلك القرية جاثمة تنتظر من يأخذها ، وفيها الغالي والنفيس. تأملها الرجل بصمت لوهلة ثم قال : ((كلا ، أنا لا أريد هذه الأشياء.))

رد هارلوك متعجبا : ((ماذا؟ ما الذي تريده إذا؟))

- ((إن ما أريده هو . . . شيء آخر . . . ليس شيئا بل شخصا . . . أريد أن أتخذ سبية.))

رمقه هارلوك طويلا ، ثم انفجر ضاحكا ، وربت على ظهره : ((تريد سبية؟ يا لك من شقي ، تعال ، تعال.)) ثم قاده أين يحتفظون بالأهالي.

رمقته الأعين حينما اقترب مع صياد الرجال نحوهم ، أعين دامعة ، أعين غاضبة ، وأعين تنظر بشرود نحو قادم مجهول. كان الحراس لا يزالون قائمين عليهم ، يطعمونهم لسعات من أسلحتهم كلما أراد أحدهم الخروج عن القطيع.

توجه الرجلان نحو حشد النساء وأخذ الدليل يراقبهن بأعين فاحصة ، ليقول له هارلوك : ((حسنا ، بإمكانك اختيار من تريد.))

بدأ الرجل يعاينهن واحدة واحدة ، وكلما اقترب من إحداهن قابلته بالرفض دون النظر إلى وجهه ، لكنه لم يكترث لذلك كونه لن يغير شيئا حقا ، وظل يبحث عن محظيته.

ظل هارلوك يراقبه بفضول ، إذ كان يريد معرفة ذوق الجنوبيين في النساء ، فقد مر الدليل بالكثير من الجميلات غير أنه تجاوزهن من النظرة الأولى. وكلما رفض الرجل نساء أكثر ، زاد فضول الشمالي لمعرفة ما يريده الدليل.

ظل الجنوبي يقلب ويقلب ، وأعين النساء تنظر إليه بازدراء وغضب ، غير أنها كانت تختلط بالخوف والوجل ، إذ لا تريد أي واحدة أن تقع يد هذا الخائن عليها ، فكانت قلوبهن ترتجف كلما اقترب منهن ، إلا واحدة . . . وقد لمحها على الفور ، كانت نظراتها تنضح تحديا ، وتقطر حنقا ، ولم يكن فيها أي أثر للخوف أو الوهن.

كانت تقف شامخة ، كصنم حجري ، وقد برز قدها من بين النساء اللواتي كن يقفن بخنوع. لمعت بشرتها الحنطية تحت شمس العصر ، وبرقت عيناها السماويتان بفخر واعتزاز ، بينما أخذ شعرها يتموج مع رياح الصحراء ، رفقة ردائها الأزرق.

رآها الدليل وابتسم ثم خطى نحوها بهدوء ، و أخذ هارلوك يراقب المشهد بحرص. وقف الرجل أمامها فاحصا جل جسدها ، وأخذت هي ترمق عينيه دون حراك ، وحين التقت العينان ، توقع أن تقوم بخفضهما ، لكن ما حدث هو العكس ، إذ شعر بالارتباك وأشاح هو بعينيه بعيدا عن تلك النظرات الثاقبة ، فشعر بالاستفزاز.

مد يده إليها ، فلامس ذقنها ، لكنها أبعدت وجهها بملامح مزدرية ، فزاده ذلك حنقا ، ليقول لها : ((أحسني التصرف ، وإلا لطمتك.))

لكنها ردت بصوت كله حزم و استعلاء : ((المسني وسوف تندم.))

كان هارلوك مستمتعا بالمنظر ، ومنتظرا ما سيقوم به الدليل ، إذ بدا له الموقف مسليا جدا ، وأخذ يشاهد وكله انتباه كي يلتقط الكلمات الصعبة ويفهم كل ما يقال.

بعد ما قالته المرأة ، استشاط الدليل غضبا ، وبدا من الواضح أنه على وشك فعل الأسوء ، فصرخ قائلا : ((بل سألمسك ، وستطول يدي كل شبر في جسدك.)) ثم مد يده إليها ، لكنها وبحركة خاطفة ، وجهت إليه صفعة تردد صداها في المكان ، ودفعته بعيدا وقد جمدته الصدمة.

انطلق الجنود بسياطهم إليها لكن هارلوك أوقفهم بإشارة منه ، وراح يراقب المشهد وهو يضحك ملء شدقيه ، بينما اكتفى الأهالي بابتسامة خفيفة ، فقد اعتبروا ذلك نصرا صغيرا يشفي ولو قليلا من غليلهم ، لكن الابتسامات سرعان ما اختفت لأن الكل علم ما هو قادم.

نظر الدليل بأعين ملؤها الشرر إلى المرأة ثم هوى على وجهها بباطن يده ، فأدماها وأسقطها أرضا ليقول لها : ((أتضربينني؟ أتجرؤين على مد يدك القذرة علي؟ أيتها القذرة.)) ثم سدد إليها ركلة نحو أضلاعها ، فانطلقت منها صرخة حاولت كتمانها ، وشدت على موضع الضربة مواجهة الأرض.

اختفت الابتسامة من وجه هارلوك ، وأحس أن عليه التدخل ، لكن أحد جنوده الجنوبيين قد جاء وقاطع الكل قائلا : ((سيدي ، لقد شوهد رجل بحصانه متوجه بسرعة إلى هنا.))

تعجب هارلوك ، ورد عليه : ((رجل؟ أكان وحيدا؟))

- ((أجل.))

- ((انظروا في أمره إذا ، وإن كان عدوا فاقتلوه.))

- ((حاضر.))

نهضت المرأة المتحدية بصعوبة ،فوجه الكل أنظارهم إليها ، لتقول بابتسامة واثقة : ((يا ويلكم من شر قد اقترب!))

وفور إكمالها لتلك الجملة ، أتبعها وابل من الزغاريد أخذ يتعالى وينتشر جاعلا الموقف مشحونا فوضويا مبهم الملامح ، أخذت النساء تولول تحت وقع السياط ، ورفع الرجال الأسرى أصواتهم هتافا، أما الدليل فقد ضاع بين أهل القرية وتوارى بين أجسادهم والتهمته الفوضى التي دبت فجأة وأخذت تستفحل في المكان.

لم يفهم هارلوك سبب هذا السلوك الغريب من القرويين ، والحقيقة أنه لم يدخر الكثير من الجهد لذلك ، فقد أخذت يده الآمرة على الفور توجه السياط

لكبح جماح هذا القطيع الهائج ، وحين لم ينفع ذلك ، استل سيفه ودخل بينهم مهددا بصوته الجهوري : ((توقفوا عن ذلك وإلا قتلتكم ، أيها الملاعين الهمج!)) وعندها لمح بين الأطياف المتداخلة تلك المرأة ، وقد برز شموخها وعزتها أكثر من ذي قبل وهي تقف منتصبة أمام جثة الدليل الذي طالته الكدمات وداسته الأقدام ، وأضحى محض جيفة مغبرة. وبينما أخذت عينا هارلوك تتفرس المشهد أمامه جاءه صوت من وراء الضجيج يناديه ، لكن صياد الرجال ظل ينظر إلى تلك المرأة ، التي نظرت إليه بدورها ، ومقلتاها شرر متقد ، أما ثغرها فقد التوى بابتسامة نصر.

ما الذي حدث للتو؟!

- ((سيدي . . . سيدي . . . سيدي . . .)) انتشلته كلمات ساعده الأيمن من بحر الشرود وصعدت به إلى السطح ، فعادت حواسه للعمل مجددا واختفت صورة المرأة المتحدية ليبرز مكانها معاونه الذي اكتسى بالجروح وتمزقت ثيابه وكأنه صارع أسدا.

- ((ما الذي حدث لك؟ لمَ أنت على هذه الهيئة؟)) بلغت كلمات هارلوك أذن ساعده بصعوبة وسط الضجيج والفوضى.

- ((إنه ليس رجلا! أقسم أنه ليس ببشر! لقد هزم كتيبتين وحده ، كتيبتين بحق الآلهة!))

- ((ما الذي تتكلم عنه؟))

- ((كتيبتان من جيشنا سقطت بفعل رجل واحد!))

لم يُبدِ المعاون قدرة على الشرح أكثر ، ولم يكن هارلوك في مزاج لحثه ، فأمره بتولي وضع القرويين ، وانطلق على الفور إلى جنوده الذين لم يسمع لهم أثرا ، وقد عصفت به الأفكار بما لا يدع له مجالا لاستحضارها ، فتركه ذلك دمية للظروف تحركه أينما شاءت ، دون أن يكون له دور أو إرادة.

مقابل الشارع الذي حوى البيت المحمل بالغنائم ، أين كان جنوده مجتمعين من قبل ، وقف هارلوك منتصبا وقد اتسعت أعينه وجف حلقه أمام هول ما كان يرى ، حمام دم ملأ الجدران وتراب الأرض ، جثث مترامية بعشوائية هنا وهناك وبين الموجودات ، لوحة فنية لجزار بشر رسمها بالأحمر وخطها بالسيف ، ووسطها وقف الفنان ، رجل ممشوق القوام ، طويل العود ، قوي الذراعين ، تلوثت ملابسه بدم أعدائه ، وأخذ شعره الطويل يركب الريح متموجا مع تياراتها ، أما يده فقد حملت سيفا مخضبا لم يبد عليه الشبع بعد كل ما تذوقه من دم الرجال.

دب الخوف في أوصال هارلوك ، واستشعر ما لم يستشعره من قبل طول حياته ، فحول ناظريه إلى جنوده الذين تحلقوا حول الوافد بحذر ، وسرعان ما لمحوه فاستنجدوا به ، معلقين عليه آمالهم في ترويض الوحش الماثل أمامهم.

نفض هارلوك عنه الخوف والوجل ، وشعر بالعار لأنه سمح لهما بالتسرب لداخله ، ليتقمص شخص صياد الرجال ويتقدم نحو المحارب الجنوبي. حين مثل أمامه ، رفع السياف رأسه فلاح تحت خصلات شعره وجه شاب يافع ، لم تأخذ لحيته حتى صورتها النهائية ، فارتفع حاجبا هارلوك واتسعت عيناه لعجب ما يرى أمامه : ***أفعل هذا الفتى كل هذا؟ أكان هو وراء هذه المجزرة؟***

رفع الشاب سيفه ووجه النصل نحو صياد الرجال موجها إليه الحديث : ((أنت قائدهم، أليس كذلك؟))

استشعر هارلوك في نبرته أشياء حركت كبرياءه فرد باستعلاء وغضب : ((أنا هارلوك ، صياد الرجال ، وأنا السيد هنا ، سيد الجنود والقرية.)) كان يحاول قدر ما يمكن ضبط لهجته كي يفهم محدثه كل كلمة تقال.

حدق فيه الشاب طويلا ، حتى ظنوا أنه قد يفكر في الهجوم ، لكنه فجأة ضحك بسخرية وانحنى متهكما ثم رد : ((مولاي ، اعذرني على ما بدر مني ، كانت هفوة صغيرة ، يبدو أنني قتلت بالخطأ عشرين من رجالك ، أرجو الصفح والغفران.)) ثم انتفض جسده بضحكة أخرى ، بينما استشاط هارلوك غضبا.

- ((أنت لا تعرفني بعد يا فتى ، أتظن أن غرا مثلك سيصمد أمامي؟ سأجعلك عبرة لمن يعتبر.)) واستل سيفه ليقف في وضع استعداد لهجوم وشيك.

- ((غر؟ نحن في الصحراء ، وموطنك بعيد ، أنت الغر ، يا أبيض المنبت! كثيرون ثرثروا بمثل ما تثرثر به ، وقليلون حظوا بميتة سريعة ، أما الباقي فقد أخذت راحتي معه. سيكون ذلك مصيرك ، أيها الوثني القذر ، وليضربنك كل من في القرية قصاصا على ما فعلته.))

لم ينتظر هارلوك المزيد ، وانقض على الشاب بكل قوته ، معتمدا على عنصر المفاجأة ومسددا ضربة قاصمة موجهة إلى عنقه المكشوف ، وفكر قائلا : *قضيت عليه ، لا يمكن لأي أحد النجاة من . . .*

كان كل شيء سريعا ، إذ لم يرتد طرف هارلوك إليه إلا وجزء من سيفه على الأرض ، بينما كان هو يمسك الجزء الآخر وقد تخطى جسد خصمه وأضحى

وراءه. وحين استوعب الأمر ، أدرك أن الشاب قد قسم سلاحه نصفين بحركة لم يرها أي أحد ، ولم يلمح لها طيفا.

- ((ساردبار . . . تذكر هذا الاسم جيدا ، كان بإمكاني قتلك ، لكنني أفضل أن أعبث معك أكثر ، حين يسألك الناس ، قل لهم فقط شيئا واحدا ، ساردبار.))

كان الجنود المتفرجون مصعوقين مما جرى للتو ، كيف لقائد عظيم أن يهزم بمثل تلك السرعة؟

توقدت عينا هارلوك ، وأصبح الأمر بالنسبة إليه مسألة شخصية ، لن يرضى بمثل تلك الإهانة ، ليس من غر جنوبي!

وقف على قدميه وأمر بسيف آخر ، ثم أخذ يلوح به في وجه خصمه ، الذي قال : ((أتريد الرقص؟)) ليحرك هو أيضا بسيفه المخضب المنحرف يمنة ويسرة ، وفي حركة دائرية حول جسمه ، مستعرضا مهاراته بإيماءات ساخرة ، وملامح مستفزة.

أخذ هارلوك الآن يراقبه بحرص ، متربصا به كمفترس كاسر ، وعضلات جسمه مشدودة استعدادا لهجوم وشيك ، أما فريسته فقد ضلت ترقص غير مكترثة لوضعياتها المنكشفة دون دفاع ، وكأن السياف الجنوبي يعرض جسده طعما كي ينقض عليه خصمه.

اتخذ خطوة نحوه ، فتوقف ساردبار عن الاستعراض وبدأ يحاكي هارلوك بتهكم ، وحركات خرقاء متعمدة. لم يبتلع صياد الرجال الطعم ، فمن الواضح أن الخصم يريد إعماء بصيرته باستفزازه ، وضل مركزا انتباهه على أي فرصة سانحة قد تبدر منه.

خطوة ثانية ، لا يريد الاستعجال وتكرار الخطأ الذي فعله من قبل ، إذ من الواضح أن هذا الجنوبي شديد السرعة بما لا يضاهي أي أحد قد رآه هارلوك من قبل ، لذلك فكر : *إن كنت سأهزمه ، فلن أفعل ذلك إلا بالقوة ، فهي ما أتفوق عليه بها.* شعر بشرارة غضب صغيرة بداخله حين تذكر أنه أمام فتى أصغر من كل جندي معه ، لكنه لم يدع لتلك الأفكار مجالا لتتسرب إلى عقله ، *السن لا يعني شيئا ، فالسيف هو السيف ، والموت واحد.*

خطوة ثالثة ، الآن قد اقترب كثيرا من هدفه ، وأصبح على مسافة سيف من خصمه ، *لا مزيد من الخطوات فقط الضربة الآن من تحدد* ، نظر إلى عيني ساردبار ، فوجد فيهما علامات توحي بـ . . . الضجر.

- ((إن لم تملك الشجاعة لذلك ، فدعني أساعدك.)) نطق بها ساردبار ، وهب نحو خصمه بحركة خاطفة ، وفي الوقت المناسب حمى هارلوك نفسه بسيفه من هجمة مميتة ، فاحتك النصلان ، وانزلق الحد الملتوي لسلاح الجنوبي مطلقا شررا ، فخشي هارلوك من انفلاته نحو جسده ، لذلك سدد ركلة برجله تفطن لها السياف وابتعد عن مرماها ليتشقلب بعيدا.

- ((كنت أعلم أنك مسلٍ ، هجمتك الأولى كانت محض غباء ، أرجو منك ألا تكرر ذلك ، لأنه قد حميت أوصالي ، ولا أظن أني في استطاعة كبح نفسي عنك.)) كان الفتى متقدا بالحيوية ، يقفز في كل الأنحاء ، بينما أخذ هارلوك يلهث تحت أشعة الشمس. *كيف لغر مثله أن يهزأ بي كما لو كنت عجوزا؟!*

لاحت على وجوه الرجال صدمة ، فلم يعتادوا رؤية قائدهم العظيم بمثل هذا الذل ، وأمام من؟ فتى من الجنوب! لاحظ ساردبار ذلك عليهم ، فأخذ

يهرج ويسخر منهم بحركات مستفزة حركت بعضهم ، لكنهم لم يجرؤوا على لمسه ، ذلك أنه الآن فريسة صياد الرجال ، ولا يسمح لأحد بلمس صيد هارلوك.

انتصب قائد الشماليين مجددا وراء خصمه ، وهذه المرة ، أزال درعه المبطن تحت ثيابه ، بحثا عن حرية أكبر في الحركة وتعرق أقل من الحرارة ، بدا المشهد مضحكا لساردبار فعلق قائلا : ((احتشم يا هذا ، أيا كانت عاداتكم في الشمال ، نحن لا نتعرى هنا.))

- ((لست إلا فما يثرثر و جسما يتلوى ، لنرى إن كنت ستضل كذلك حين تموت.))

- ((لن تعلم متى بإمكاني مفاجأتك.))

ثم وبحركة خاطفة وثب ساردبار برجله اليمنى مقدما سيفه باتجاه هارلوك، لكن هذا الأخير وجد حرية أكبر بعد تخفيف حمله ، فتصدى له بسرعة وميل سيفه محاولا إفقاد توازن خصمه ، لكن الفتى لم تنطل عليه الحيلة وانسحب في الوقت المناسب ، فكر هارلوك : *هو يعرف أن ضرباتي أقوى ، لذلك فهو يعتمد كليا على سرعته ، لابد من وجود طريقة لإبطائه.*

لم يدخر السلداني وقتا ، وعاود هجومه مرة أخرى على خصمه ، ومجددا تم صدها وانسحب بعيدا مرة أخرى. بدأ هارلوك يلاحظ النمط المتكرر لضربات ساردبار ، فهو يعتمد على الكر والفر ، محاولا إرهاقه ، ففكر قائلا : *كل من أرداهم من الرجال كانوا بطيئين ، أقوياء لكن تعوزهم السرعة ، وبذلك فقد استطاع توجيه ضربات قاتلة إليهم ، هو لا يقتل من ضربة واحدة ، ذلك أن هجماته أضعف من ذلك ، بل يعتمد على ضربات استراتيجية محددة ، مما*

يسبب نتائج فوضوية وهو ما يفسر المجزرة التي هنا. لقد ماتوا لأنهم لم يستطيعوا مجاراته ، أما أنا فلي حديث آخر.

لاحت ابتسامة ماكرة على ثغر هارلوك وهو يقول : ((يجب علي شكرك حقا أيها الفتى ، لقد خلصتني من بعض الرجال الضعفاء.))

رفع السلداني حاجبا ، ورد بسخرية : ((أراهن أنهم أقوى من البقية.)) ثم قلب أنظاره بين الجنود المتحلقين حوله فرموه بوابل من الشتائم.

- ((رهانك خاطئ ، لقد حالفك الحظ ، كانوا رجالا أثقلهم الأكل والشرب ، أبطأ من أن يدافعوا عن أنفسهم ، لا تسئ فهمي يا فتى ، أنت بارع ، لكن المهارة وحدها لا تكفي ، تحتاج إلى الكثير من الخبرة ، وحركات جديدة أيضا.))

- ((لقد أخبرتك من قبل ، لن تعلم متى بإمكاني مفاجأتك.)) ثم تقدم إليه فجأة في مسار مباشر ، بدون لف ولا دوران ، متجردا من كل أسلوبه ، ومعتنقا نمطا جديدا من الحركات. *ما هذا الذي يفعله؟*

تقابل النصلان واصطدما في ثبات ، فوجد هارلوك في ضربة خصمه قوة لم يعتدها منه ، لتنتصب حواسه وتختلط حساباته ، كان ساردبار الآن يوجه هجمات قوية ومباشرة ، تركت الكل في حيرة ، إذ بدا وكأن هارلوك يصارع دبا ، وليس فتى بسيف ملتو. *بحق الآلهة ما هذا؟* لم يستوعب عقل هارلوك التغير المفاجئ في تصرفات خصمه واكتفى بصد ضرباته بصعوبة ، حتى تعثر وسقط إلى الأرض مثيرا الغبار حوله ، وهناك توقع انبثاق سيف ساردبار من بين الأتربة المتطايرة ، لكنه بدلا من ذلك سمع صوته يقول :

- ((توقعت أنني لن أستطيع الضرب بقوة؟ لم أتوقع منك أن تكون بذلك الغباء ، ألم أكسر سيفك من قبل؟)) *تبا، كيف أغفلت ذلك؟!*

أكمل السلداني : ((أمتعتني بقتالك ، لكن لا تظن أنك ستقف ندا أمامي ، انتهى الأمر أيها الشمالي ، رفاقي قادمون ، وقد نلت كفايتي منك.)) *أقال أن رفاقه قادمون؟*

ليخترق المشهد جندي يهرول ويقول لاهثا : ((سيدي ، هناك جيش قادم ، هناك جيش سلداني كامل قادم إلينا.)) بحق الآلهة!

بدأ الشماليون ينتفضون ويهرولون في كل مكان ليصرخ فيهم هارلوك آمرا : ((اذهبوا ، الزموا مواقعكم وتصدوا لهم ، نحن لن نهرب من هنا ، واتركوا هذا الفتى لي.)) فامتثلوا وأمارات الخوف بادية على وجوههم ، فأدرك هارلوك أن نصفهم فقط سيبقى ، أما الباقي فسيحاول الهرب ، لكنه أدرك أخيرا : *هذه هي النهاية ، جيش كامل قادم ، وسيبيدنا كلنا.* استشعر في كلماته تقبلا غريبا وتسليما بقدره ، وكأنه يريد فعلا لهذا كله أن ينتهي ، فشعر بشيء من السلام الداخلي يغلفه ، ولم يحس بأي كراهية تجاه أعداءه ، إلا شخص واحد. . .

إن كنت سأموت ، فلن يكون ذلك على يد هذا الفتى! نظر هارلوك إلى خصمه الذي كان يرقبه بابتسامة مستفزة وفكر : *ستواجه شيئا لم تره من قبل ، ستعرف شعور أن تقاتل من لم يبق لديه شيء ليخسره.* ثم انقض عليه بكامل قوته.

تملكت ساردبار صدمة من جرأة خصمه ، إذ اكتسبت ضرباته قوة أكبر ، وأضحت وضعياته أكثر إقداما ، فأجبر على التراجع وسط فوضى ضرباته وكل شيء آخر حوله. *لا يوجد أخطر من رجل ليس لديه ما يخسره.*

حاول السلداني التكيف مع المتغيرات ، وأضحى أكثر تجاوبا مع القوة الرهيبة لهارلوك ، ففكر الأخير : *تبا! ألا يتعب أبدا؟* وسرعان ما بدأ ساردبار بالفعل الهجوم المضاد بدلا من الاكتفاء بالدفاع وحسب. فأتى هارلوك طيف فكرة شيطانية.

وجه الشمالي ضربة منخفضة إلى سيقان خصمه ، فوثب متفاديا ، وهناك لاحت الفرصة ، إذ أخذ هارلوك بكفه حفنة من الرمال ، وما إن عاد ساردبار إلى الأرض حتى نثر الرمال على عينيه بحركة سريعة ، جعلت الجنوبي يجفل ويتراجع مترنحا ، فهتف صياد الرجال في داخله : *انتهى الأمر!* وانقض عليه بكامل قوته في ضربة أخيرة يقضي فيها عليه ويقطع رأسه ، واقترب من عنقه المكشوفة بأقصى سرعته ، موجها نصله ليقطعها ، و . . . سمع صوت شيء ينكسر ، ووجد نفسه وراء خصمه ، وبيده نصف سيف ارتمى نصفه الآخر بعيدا عنه.

بأعين متسعة ، غير مصدق لما حدث ، ظل هارلوك جاثما على الأرض بينما وقف خصمه مغمض العينين بسيف مرفوع وابتسامة عريضة ، ليقول : ((مشكلة السيوف المستقيمة أنها ضعيفة سهلة الكسر ، تماما مثلكم أيها الشماليون.)) ثم تقدم نحو هارلوك وهو يفرك عينيه ويحاول فتحها : ((يا منعدم الشرف ، أكنت ستفرح بنصر كهذا؟ لن أشرفك بقتلك.)) وسط ذهوله لم يستطع هارلوك تحريك أي عضلة في جسمه ، فظل متجمدا ينظر إلى خصمه بأعين متسعة ، *إنه ليس ببشري! اليوم لم أهزم على يد فتى ، بل على يد وحش.* ظل الجنوبي يعاينه وقد تمكن أخيرا من فتح عينيه ، ثم قال : ((رفاقك الآن يذبحون على الأرجح ، لن تنال راحتهم ، سوف تعيش يا ابن الشمال ، وحين

يسألونك قل لهم شيئا واحدا : ساردبار.)) ثم أمسك سيفه بالمقلوب ووجه ضربة بمقبضه إلى رأس هارلوك ، فحل الظلام.

أضواء ساطعة ، خيالات متحركة في كل مكان ، وأصوات تصرخ بشتائم لا يعرف معناها ، وصرخات جسده المتألم تحت وقع ضرباتهم المستمرة. كان هارلوك يجر عاري الصدر عبر أزقة القرية وطرقها ، وحشود الأهالي يجتمعون حوله وهم يلقون عليه الحجارة ومختلف أنواع المقذورات ، أما هو فكان يمشي متعثرا ويداه مقيدتان وراء حصان يقوده ساردبار ، منكسا رأسه يقطر دما وقذارة. لم يعلم ماذا حل بجيشه ، و لم يعلم مصير أي منهم ، وفي الحقيقة لم يكن ليكترث ، إذ لم يشعر بأي شفقة أو غضب ، ولم يحس بالإهانة لما هم فاعلون به ، إذ ذابت كل أحاسيسه وأصبح بهيمة لا أكثر.

قيد هارلوك إلى مركز القرية ، وتحلق حوله الكل يرمقونه بنظرات حادة يسيل منها الحقد والاشمئزاز، أما نظراته هو فقد كانت خاوية خالية من أي مشاعر. انبثق من بين الجموع الولد الذي استعمله هارلوك كرهينة من قبل ، ووقف أمام قاتل والده المقيد ، رامقا إياه بشرر متقد ، ثم وجه ركلة إلى ما بين رجليه جعلت اللعاب يسيل من فم هارلوك ، ليتحمس الحشد و يهتف للولد بينما يحملونه محتفين به كبطل. دارت الوجوه والأجساد حوله في تموج ، و فصلت غشاوة الصيحات والهتافات والشتائم عن أذنيه ، و قبل أن يغيب عن الوعي لمحت عينه تلك المرأة ، بوقفتها المعتدة وتعابيرها الشامخة ، وبجانبها كان هو ، مبتسما متأبطا ذراعها ، حينها تحركت شفاه هارلوك محاولة الإفراج عن كلمة ما ، لكن مهما جاهد نفسه ، فقد ظل صوته حبيس جوفه ، وابتلعه الظلام.

هطلت الثلوج عليهم ، وأخذت كلابهم بالنباح ، وبينما عدت خيولهم بين التلال الثلجية مطاردة دبا صغيرا ، نظر هو إلى مرافقيه. كان الملك إليام العظيم على يمينه بشعره الذهبي الطويل التي يتمايل مع الريح التي أخذت تضرب وجوههم. وعلى يساره صلى الكاهن الأعلى بكلمات مسموعة بينما يطارد هو الآخر الفريسة ، وحين بلغوها أخيرا حاصروها ثم التفتوا جميعا إليه، وكأنما ينتظرون منه هو أن يجهز على الدب الصغير ، خاطبه الكاهن الأعلى قائلا : ((تقدم أيها الرجل الصالح ، بركة الآلهة معك.)) فتقدم هو متجاوزا إياه والملك نحو الفريسة ، لكن إليام العظيم نطق : ((لا يعجبني ذلك ، إنه لا يبدو كصياد حقيقي ، سيهزمه الصغير بسهولة.)) وحينها تحول وجه الدب إلى شكل بشري ، ورمقه هارلوك برعب وهو يصرخ : ((ساردبار! ساردبار! أرجوك يا مليكي! أيها الكاهن الأعلى! أنقذوني!)) لكنهم انصرفوا عنه تاركين إياه وحيدا مع الوحش الذي كبر حجمه وأخذ يضحك بجنون بينما يمزقه ، ليفتح فكه وينقض على وجهه.

أحرقت الشمس عينيه حين فتحها ، واشتعل ظهره ألما ، واستحكته رجله. حاول النهوض ، لكن يديه ضلتا تنزلقان ، وحين رفع رأسه أدرك الأمر أخيرا. كان يجر على ظهره وقد أحاطت الرمال به من كل مكان ورجله مربوطة إلى الحصان الذي أخذ يسحبه ببطء ، وقد كان هو هناك ، ساردبار على متن جواده. علق لسانه في فمه من جراء الجفاف ، وانغرست مئة ابرة في وجهه كلما حاول تحريك ملامحه بعد أن جف وأصبح طبقات من الجلد المحروق ، أما ظهره فقد تقرح ونزفت قدمه من الحبل الذي بدا كسكين ملتف حولها. كان الألم لا يطاق ، لكن هارلوك لم يقو على التحدث أو الصراخ.

بلغوا نقطة في اللامكان ، وهناك توقف الجنوبي وترجل وأخذ قربة من رحاله ثم توجه نحو الشمالي ، وحين دنى منه أماط لثامه ، وقال: ((هنا أستودعك الصحراء يا ابن الشمال ، هاك!)) ورمى له القربة ، فالتقطها هارلوك بلهفة ، وأفرغها في جوفه ، لتندفع المياه الدافئة تلسع فمه ، وتروي كل شبر في جسده. ((لم يكن ذلك من الحكمة ، أمامك أيام لتمشيها ، ستموت إن شربتها كلها.)) قالها ساردبار وهو يفك قيود الشمالي ، وحين استوعب هارلوك الأمر أخيرا ، كان ما في القربة قد فرغ. ((وا أسفاه، أملت أن تعيش لتخبرهم بخبرك ، فات الأوان.)) استنفد كل ما لديه من ماء في شربة واحدة! وهو وسط الصحراء! أدرك هارلوك حجم الكارثة ، سيموت هنا من العطش ، دون قبر أو شاهد ، ميتة بطيئة مخزية مؤلمة ، حاول يائسا بلوغ خصمه لسرقة ما لديه ، أو على الأقل لنيل ميتة سريعة من سيفه ، لكن ساردبار كان قد امتطى حصانه وابتعد عن متناول يده ، حينها سقط هارلوك على ركبتيه واستجمع ما بقي له من صوت ليقول واهنا : ((أرجوك. . . أرجوك. . . أر. . . جوك.)) إنه يترجى ، صياد الرجال يتوسل! أزعجه الخاطر لجزء من الثانية ، لكنه بعد ذلك أدرك أن لا أهمية لشيء حين يأتي الموت ، خصوصا حين يأتي بهذه الهيئة. . . لاحت ابتسامة على وجه الجنوبي وهدر في وجه عدوه : ((ساردبار ، إن سألوك قل لهم ساردبار.)) ثم لكز جواده وانطلق كالريح في الصحراء المقفرة مثيرا الغبار وراءه.

وحيدا ، عطشانا ، مجروحا ، مشى هارلوك بين الكثبان وسط اللامكان ، ذاهبا شمالا عساه يصل إلى مكان ما. *إن كان من المحتم علي أن أموت هنا ، فلأمت في أقصى مكان أستطيع بلوغه شمالا. فلأمت عائدا إلى الوطن . . . أو على الأقل فلأمت محاولا ذلك.*

كان ما مر به هناك كفيل بأن يكسر كبرياءه ، ويحطم غروره ، ويذره عاريا ، باردا ، خامدا ، كقطعة خشب. لم يشعر بأي كراهية نحو ساردبار ، ذلك الفارس الذي استطاع هزيمته ، كما لم يكره الأهالي الذين أخذوا منه ثأرهم. بشكل ما كان يحس بالندم عل كل ما فعله ، فكأنما حين انكسر سيفه في القتال ، انكسرت معها عزيمته ، ومات هناك صياد الرجال ، بينما ترك هارلوك من (جبال الصقيع) ذلك الذي ولد في البرد وتربى بين الثلوج ليموت في الحر ويحتضر بين الرمال.

بعد أميال من المشي العابث دون وجهة ، خانته قدماه أخيرا ، وانهار على الأرض الرملية مستسلما للتعب ، وبينما أخذت الشمس تدنو شيئا فشيئا استعدادا للمغيب ، أحس هارلوك بحياته تغرب هي الأخرى ببطء ممررة شريط ذكرياته على عينيه. لاحت طفولته كطيف لطيف أخذ يتموج عبر خياله ، فتذكر عائلته ، أباه وأمه ، إخوانه وهم يتزحلقون على التلال ويلعبون المصارعة ، ليقاطعه مشهد جثة أبيه المثقوبة بالسهام ، ثم أمه وقد أضعفتها الحمى وأخذتها إلى عالم لا رجعة فيه ، ثم تغيرت الأحداث ، ووجد نفسه وسط المعارك التي خاضها ، يقاتل بشجاعة ويكاد يقتل في أحيان كثيرة ، لكن دائما ما حالفه الحظ ، ولم يحالف إخوته ، إذ مرت جثثهم عليه واحدا تلو الآخر ، وحين انتهى المشهد وجد هارلوك نفسه وسط جثث أخرى لا يعرفها ، جثث قتلها هو ، أو بالأحرى جثث صياد الرجال ، وهكذا مر عليه شبح الملك إليام والكاهن الأكبر ، ورفاقه وجنوده وآخرين كثيرين ، وفي النهاية لم يكن إلا هو بابتسامة ماكرة . . . ساردبار.

أغمض هارلوك عينيه ، واستسلم للنسيم البارد الذي هب فجأة ، فخاطب نفسه : *أنا وسط الصحراء ، الجو حار هنا ، لا بد أن ذلك النسيم كان الموت*

نفسه ، *الابن قد حضر لأخذ روحي*. ثم لمح شبحا ما لشيء كبير يقترب إليه ، ثم هيئة تتقدم نحوه ، وهناك ابتسم هارلوك وقال : ((أنا هنا . . . أيها الابن الإله . . . خذني إلى قصوركم . . . خذني إلى الأم الرحيمة . . . لكن ليس إلى الأب ، لا تأخذني إلى الأب أولا . . . أحتاج رحمة الأم قبل أن يحكم علي . . . أيها الابن الإله . . .))

انحنى عليه الظل ثم رد : ((لا تقلق ، لقد نجوت. كل هذا سينتهي قريبا.)) فابتسم هارلوك ، واستعد ليسلم روحه بسلام ، لكن الظل تابع : ((سيدي ، لا تمت بعد! أفق!)) ثم وجه إليه لطمات خفيفة على وجهه وهو يصيح : ((ماء! أحضروا الماء بسرعة!)) و إذ تدفق السائل إلى جسمه ، استيقظت حواسه من جديد ، وانبعث جسده بعد أن غذي بالحياة ، وحين أدرك هارلوك أخيرا ما يحدث ، وجد نفسه على متن هودج ، وقد تحول ذلك الذي كان يظن أنه الابن إلى ساعده الأيمن الذي كان تحت إمرته ، وأخذ يقول : ((ظنناك ميتا يا سيدي ، لكن ها أنت ذا! بعد أن حاصرنا جيشهم استطعنا الهرب إلى الصحراء ، وقد حالفنا الحظ إذ وجدنا قافلة أغرنا عليها وأخذنا ما فيها ، والآن أظننا نحن القافلة. . .))

- ((اصمت.)) قاطعه هارلوك فجأة. ((لقد حرمتني النعيم ، كنت هناك مع الآلهة ، لكنك أعدتني إلى هنا.))

- ((سوف ننتقم ، سنعد العدة ثم نغير عليهم من جديد . . .))

- ((اصمت.)) حاول النهوض لكنه لم يستطع ذلك فاعتدل ليكمل : ((سنعود إلى الوطن ، كفى زحفا على الرمال.))

- ((لكن ، سيدي ، صياد الرجال لا . . .))

- ((صياد الرجال قد مات ، لقد قتل هناك في القرية.))

ارتبك المعاون للحظة ثم قال : ((ذلك السلداني؟ ألم . . . ألم تهزمه؟))

- ((كلا ، لا أحد بإمكانه هزيمته.)) ولما رأى التعبير الغاضب غير المصدق على وجه محدثه أردف قائلا : ((حين يسألونك عمن هزمنا هنا ، فقل لهم شيئا واحدا : إنه ساردبار . . . إنه السيف المخضب.))

عم الصمت ، وأخذت نيران الموقد تطقطق بهدوء بينما حدق الآخرون بصمت إلى هارلوك ، الذي أخذ رشفة من كوبه وأغمض عينيه لتظهر تجاعيده العميقة التي حفرها الزمن على وجهه فأكسبه نوعا من الوقار. ولما لم يستطع أحد التحدث ، أعقب هو بصوت عميق : ((الحرب شيء شنيع حقا ، لكنها تجذب الفتيان الحمقى الذين يظنون أن مجدا ما ينتظرهم ، في النهاية لا أحد منهم يعود ، إما أن يقتلوا وإما أن يصبحوا أشياء أخرى ، الحرب هاوية إلى الجحيم ، كلما تعمقت أكثر صعب عليك الصعود مجددا ، وتذوب إنسانيتك بينما تقترب من النيران في الأسفل ، وحين تبلغها ، لن تصبح إلا حطبا جامدا سريع الاشتعال تشب فيه النار ويلتهمه اللهب إلى أن يتفتت ، وصدقني حينها لن يحفر أي أحد لك قبرا ، وستغدو عشاء للغربان.))

حينها رد عليه أحد الجنود وراءه : ((ذلك ليس ضروريا ، إن فزت فهناك المجد والغنائم.))

تنهد العجوز برفق ثم قال دون أن يلتفت إلى محدثه : ((ما زلت صغيرا أيها الفتى ، حين تفوز يذهب المجد إلى الملوك وتخلدهم كتب التاريخ كعظماء مع أنهم لم يحملوا السيف ولا جابهوا الموت ، وحتى وإن امتلك أحدهم الشجاعة لذلك ، فغالبا سيتخذ أفضل موقع وسط الجيش ولن يصل إليه إلا المنهكون والجرحى ، ليستعرض عليهم قوته. أما إن خسرت ، أوه حسنا ، لا بد وأنك تعرف ما سيحدث عندها. إما أن تقتلك الحرب ، أو تعيش لترى نفسك تصبح وحشا ، اسأل نفسك ، من أين يأتي قطاع الطرق والمجرمون وحتى الآباء

المتعسفون ، ليسوا إلا رجالا كسرتهم الحرب وأخذت كل ما هو غال عليهم ، عائلتهم ، أصدقاؤهم ، بيتهم ، لم تترك لهم إلا السيف ، والسيف دائما عطشان يا ولد ، كلما أطعمته ازداد عطشا ، وغاص بك أعمق وأعمق في الهاوية.))

لم يرد الجندي الشاب واكتفى بالتحديق إلى ظهر هارلوك بصمت ، وحين أصبح السكوت ثقيلا ضرب تروبادور وترين ، ثم قال بنبرة حيوية : ((حسنا حسنا ، تلك قصة يجب أن تكون أغنية حزينة ، أليس كذلك يا سيدي؟)) ليقاطعه عازف الناي : ((حسب ما وصفته به ، فهذا يعني أن ساردبار أقوى سياف في العالم بأكمله؟))

ظل هارلوك صامتا لبرهة ، ثم غمغم : ((لا أعلم ، العالم كبير ، لن تدري ماذا ستجد.)) ويبدو أن الفكرة استجلبت اهتمام تروبادور ، فلمعت عيناه حين راح يسأل المسافرين الجالسين بعيدا : ((ماذا عنكما أيها السيدان؟ إنكما تبدوان ممن خاض الكثير ورأى أكثر، أتمانعان مشاركتنا بالحديث؟))

- ((كلا ، إطلاقا أيها المغني.)) هكذا رد عليهم رجل وخط بعض من الشيب رأسه وإن ما زال يبدو بعيدا عن سن الشيخوخة.

- ((أشكرك ، يبدو لي أنك بحار ، أليس كذلك؟)) كان تروبادور قد لاحظ على أسنانه ولسانه علامات مرض الإسقربوط ، والذي عادة ما يصيب البحارة.

- ((ذلك صحيح ، لقد كنت تاجرا للنبيذ ، أصدره إلى الجزر المختلفة في البحر الوسيط وحتى إمبراطورية تسو في أقصى الشرق.))

- ((إن هذا مبهر بالفعل ، أحدث وأن صادفت أو سمعت عن سياف أو محارب أفضل من ساردبار؟))

ضيق البحار عينيه ثم أخذ يداعب لحية ذقنه الصغيرة وهو يفكر ، ليجيب أخيرا : ((هناك دائما قصص عن سيافي إمبراطورية تسو ، يسمونهم الساموراي ، لكن أغلبها عبارة عن مبالغات واضحة ، ففي قصصهم يقاتلون التنانين والأرواح الشريرة ، كما أنني رأيتهم وقد بدوا كأي جنود عاديين ، لا شيء مميز.)) وتوقف قليلا ، ثم أردف فجأة : ((لكن لدي حكاية أفضل لأرويها لك ، حكاية حدثت معي شخصيا.))

استثيرت حواس تروبادور ، وارتسمت ابتسامة عريضة على وجهه وهو يقول : ((أهي عن هؤلاء الساموراي؟))

- ((أوه ، كلا ، بل هي عن القراصنة.)) وبدأت ملامح الرجل تتغير كأنه يحاول استخراج ذكرى غير محببة كانت مخبأة لسنين طويلة. ((أسمعتم عن الحبار؟)) ولما لم يبد على أحد منهم أن الاسم مألوف عنده ، أردف : ((ستفعلون قريبا.))

- ((اسقنا من قصتك ، يا سيدي. فها نحن قد أظنانا العطش ، اسقنا كي نسكر.)) ثم عزف نغمة متحمسة بأنامله ، بينما دارت عينا عازف الناي بضجر دون أن يعلق على عبارة صديقه السخيفة ، أما البحار فقد اعتدل في جلسته وأخذ يضيق عينيه ليتذكر تفاصيل القصة.

الحبار

قبل ثلاث سنين ، في البحر الوسيط :

رفرف نورس بجناحيه بعيدا ، فأخذ ريشه يتطاير وهو في طريقه للعودة إلى بر الجزيرة ، ثالث وجهة لسفينة " الكرمة البيضاء " المحملة بأطنان من براميل النبيذ الأحمر الفاخر من (الأراضي الخشبية) وصولا إلى تخوم (سواحل العقيق) ، وقد رافقتها "الساقية العذراء" و" الحيزبون السكرانة " في رحلتهم التجارية إلى إمبراطورية تسو مرورا بالجزر المتناثرة هنا وهناك في البحر الوسيط. كانوا قد غادروا الجزيرة الثالثة منذ قليل، وقد باعوا نصف ما على "الساقية العذراء" وأدرت عليهم "الحيزبون" مالا وفيرا بعدما بيع أغلب ما فيها ، أما "الكرمة البيضاء" فليست إلا لجنرالات إمبراطورية تسو و أغنيائها ، إذ أن ما عليها أفخر من أن يدفع ثمنه قاطنوا الجزر ، ولا يقتنيها إلى من بلغ منه الترف إلى الترفع عن ما يعرض أمامه والرغبة في ما هو أكثر.

شقت "الكرمة" طريقها عبر البحر كاسرة إياه وهي تتقدم مفتوحة الشراع مع اتجاه الرياح الغربية ، إن حالفهم الحظ فقد تستمر معهم حتى بلوغ وجهتهم مما سيختصر عليهم يومين كاملين ، ويوفر عليهم المؤن. لكن فيدورف يعي جيدا أن الرياح كاذبة ، والبحر غدار ، فقد خاضه عشر سنين وشهد الكثير خلالها ، أشياء تجعله يتوقع دائما الأسوء ويسبق الكارثة قبل أن تقع. عشر سنين مضت عليه وهو على متن هذه السفينة ، يبحر في نفس الرحلة مرارا وتكرارا حتى انحفرت في ذهنه وأصبح ذا دراية بكل مسالكها وأخطارها ومفاجآتها كلها. غير أن هذه المرة مختلفة ، إذ ساوره شعور غريب بالقلق ،

فأينما ذهب تقابله حكايات عن القراصنة الذين أصبحوا كثرا فجأة ، يختطفون السفن المارة وأطقمهم أيضا ، وهناك شهادات حية من أناس هربوا من قبضتهم يروون ما حدث لرفاقهم. تسرب الخوف بالفعل إلى بعض أفراد طاقمه ، لكنه أصر على المضي قدما ، متحججا أنها مجرد قصص لا غير ، فلا يمكن للقراصنة أن يصبحوا بكل تلك القوة في غضون عام واحد ، هذا فضلا عن أسطول إمبراطورية تسو القوي الذي يحرس الجزء الشرقي من البحر الوسيط. إنها مجرد حكايات بحارة ، والبحارة حكاؤون بالفطرة ، خيالهم واسع سعة البحر الذي يبحرون فيه ، معظمهم يختلق أشياء ليجعل نفسه يبدو أقوى في عيون الآخرين ، وبعضهم الآخر يفعل ذلك فقط لأنه مجنون. حوريات بحر ، وحوش وطيور عملاقة ، أرواح وإلف . . . من يدري ماذا بعد؟ قراصنة؟ صحيح أن هناك قراصنة بالأرجاء لكنه يعرف جيدا كيف يتفاداهم وكيف يقضي عليهم أيضا ، فهو ليس لقمة سائغة بعد كل شيء ، معه مقاتلون وأسلحة ، لن يجرؤ أي منهم على الاقتراب منه ، كما لم يجرؤوا طيلة العشر سنوات الماضية.

- ((يبدو أن الآلهة تبتسم لنا.)) قالها زيك ، مساعد القبطان الضخم أسمر البشرة.

- ((الآلهة لا تبتسم يا زيك ، إنها مجرد حجر ، وهم دائما ينحتونها متجهمة.)) لم يكن فيدورف يؤمن بالرؤوس الثلاث ولا أي ديانة أخرى ، إذ من كثر سماعه للقصص والأساطير والحكايات الخيالية من مختلف بقاع العالم أصبح يدرك النمط الذي تتبعه ، وهكذا فقد وصل إلى نتيجة أن ديانة أجداده ليست إلا واحدة من تلك الأساطير الجامحة، هي وكل ديانة أخرى.

- ((لكنني أرى ابتسامتها في الرياح.))

- ((حقا؟ سنرى بخصوص ذلك.)) ثم ساد الصمت برهة فطغى على المكان صوت أفراد الطاقم وهم يعملون ويزعقون ويشتمون ، بينما أخذ البحر يعزف في الخلفية أغنيته ، ويتردد بين الفينة والأخرى صوت رفرفة الأشرعة والأعلام.

- ((شيء ما يسعد الآلهة ويجعلها تبتسم لنا ، يجب علينا أن نحافظ على ذلك إن أردنا تجنب القراصنة.)) كان زيك يحب ذكر الآلهة أمام فيدورف ، فلا شيء يضايقه أكثر من ذلك ، لكن مؤخرا يبدو أن شيئا ما قد تفوق على الآلهة في إثارة غضبه . . . القراصنة.

- ((القراصنة ، القراصنة ، القراصنة . . . أينما تبصق تجد هذه الكلمة ، أرجوك اعفني من هذا الهراء ، ليس القراصنة سوى شحاذين وقطاع طرق ، ليس شيئا لا يمكننا التعامل معه ، وبالتأكيد ليس شيئا لم نتعامل معه من قبل.))

اعتدل زيك في وقفته وقال وهو يحك ذراعه : ((حسنا ، لكنهم يقولون أن الأمر مختلف ، يقولون أن قوتهم ازدادت خلال العام المنصرم ، وأصبحوا أشبه بجيش نظامي . . .))

- ((هراء ، القراصنة لصوص فوضويون ، تعليم قرد الانضباط أسهل من تعليم قرصان. أتريد أن تعرف من أين جاءت كل هذه القصص عنهم؟ حسنا سأخبرك ، على الأرجح أن بحارا غبيا ما قد صادفهم وأخذوا ما على سفينته وقتلوا طاقمه ، الذي على الأغلب يتكون من طفل ورجل عجوز ، أما هو فقد نجا بطريقة ما ، وحين عاد إلى جزيرته لم يرد أن يبدو جبانا ، فأخذ يهول من الأمر ويبالغ فيه حتى أصبح لدينا جيش قراصنة مهول كاف لإسقاط ممالك.))

- ((لكن ماذا عن الآخرين؟ يبدو أن الكل يتفق على الحكاية.))

- ((كلا ، هذا غير صحيح. قد تبدو متشابهة ، لكن كل منهم يسرد شيئا مختلفا ، الشيء الوحيد المشترك فيها هو القراصنة. يا صديقي أنت تعرف البحارة ، جرب واخترع مخلوقا ما في مخيلتك واسرد لهم قصة ما عنه ، وبحلول الغد ستجد عشر أشخاص قابلوا ذلك المخلوق أيضا ، وعشرين آخرين قتلوا بسببه.))

أطلق زيك ضحكة صاخبة ارتج معها جسده العملاق ، لكنه كتمها فجأة حين أحس بشيء ما يصطدم به من ورائه ، فالتفت ليجد فتى مرتميا على الأرض وفوقه تكومت الحبال وانعقدت على جسمه ، ليقول الولد متلعثما : ((أنا . . . أنا . . . آسف . . . آسف جدا يا سيدي . . . أرجوك اغفرلي . . . لقد تعثرت و . . . أنا آسف يا سيدي.))

مد زيك يدا ضخمة إلى الفتى ، ورفعه كما لو كان كيسا صغيرا ، ثم رد بغضب : ((ما الذي تفعله هنا؟ ألم أقل لك أن تساعدهم في المطبخ؟))

جعلت نبرة مساعد القبطان الفتى يرتجف ، فرد خائفا : ((ذ . . . ذ . . . ذهبت إليهم . . . كنت هناك . . . لكنهم طردوني . . . كسرت . . . كسرت . . . كسرت طبقين . . . فقالوا لي أن أغرب عن وجوههم . . . وأساعد على السطح.))

تركه زيك ، ووضع يدا على وجهه وهو يغمغم : ((يا للآلهة . . .))

تدخل القبطان ، وقال بلهجة هادئة : ((من هذا يا زيك؟))

- ((إنه ابن عشيقتي ، لقد ألحت علي أخذه في هذه الرحلة ، ولولا أنني أحبها لما فعلت ذلك ، فكما ترى هو عديم النفع ، لكنه يصر على العمل.))

تأمل فيدورف الفتى ، كان نحيلا قصيرا ضعيفا ، وحملت ملامحه علامات ضعف شخصية واضحة ، فأشعره ذلك بالشفقة عليه ، أولئك الذين حرص

آباؤهم على عدم معاناتهم في الطفولة ، سيعانون كثيرا عند الكبر ، وفي عالم كهذا ، فلن يتمكنوا من النجاة أصلا.

- ((ما اسمك يا فتى؟)) خاطبه القبطان بلهجة ودية.

- ((إ . . . إليام . . . إليام يا سيدي.))

- ((على اسم الملك الراحل ، جميل. لكن إليام العظيم لم يكن يرتجف.))

- ((آسف . . . آسف يا سيدي.))

- ((ولم يكن يتأسف كثيرا ، سنعمل على ذلك. أخبرني ، ما هي الأشياء التي تجيدها؟))

بدا كما لو أن السؤال أكبر من أن يتحمله الفتى إليام ، لكنه أخذ يفكر مطولا ليقول بعدها : ((أنا . . . أنا لا أعرف يا سيدي.))

أخذ القبطان يتأمله ، بينما راح زيك يفرك عينيه علامة على نفاد صبره ، وحين بدأ الفتى يحس بالذنب وأراد الاعتذار ، قاطعه فيدورف على الفور : ((ما الذي كنت معتادا على فعله في أوقات فراغك؟))

هذه المرة أجاب الفتى على الفور : ((إنني . . . كنت . . . أحب قراءة الكتب . . . كانت أمي تشتري لي الكثير منها . . . لا أخرج كثيرا . . . ولا أظن أن لدي أصدقاء . . . لكن الكتب أفضل . . . أظن ذلك . . . يا سيدي.)) ثم امتقع وجهه حين شعر أنه قال أكثر من اللازم ، لكن القبطان ربت على كتفه وقال مبتسما : ((استرخ يا فتى ، لدي عمل أظنه سيناسبك تماما. ما رأيك أن ترافقني في أعمالي المكتبية ، هناك الكثير من الرسائل والخرائط و الكتب أيضا ، تماما كما تريد ، ما رأيك؟))

- ((بالطبع . . . بالطبع يا سيدي . . .سيكون . . . سيكون هذا مناسبا.))

* * * *

داخل مقصورة القبطان كانت المخطوطات والرقوق متناثرة على طول المكتب الصغير الذي حمل على سطحه أيضا شمعدانا عليه نصفي شمعتين ذاب نصفاهما الآخر ، بينما توضع كأس نبيذ فارغ على حامل بجانب معداد صغير.

تقدم الفتى وراء القبطان بخطوات مترددة ، وراح يجوب المكان بنظراته متفحصا أركانه ، أما فيدورف فراح يضرع الغرفة جيئة وذهابا وهو يغمغم : ((أين ذلك السكير الأحمق.)) ثم صاح عاليا لدرجة أجفلت إليام : ((باااااردن! باااااااردن!))

وما هي إلا لحظات حتى دلف من الباب رجل نحيف طويل ذو عينين ناعستين وأنف عملاق ، وما إن ظهر حتى زعق فيه القبطان : ((أيها الأحمق ، انظر إلى الفوضى التي هنا ، أين كنت؟ كنت تشرب مجددا، أليس كذلك؟))

رفع باردن يدا وراح يدافع عن نفسه بطريقة مسرحية وهو يتمايل : ((أقسم بآلهة الخمور والعنب أنني لم أشرب . . .)) وسكت للحظة ثم أكمل : ((. . . كثيرا.))

نفد صبر القبطان وراح يمسك الرجل من ثوبه ، ثم جره إلى وسط المقصورة أين كان إليام واقفا ، فتراجع الفتى ليفسح المجال لفيدورف الغاضب وتابِعه الذي تعثر في كل ما في طريقه من أشياء ، سواء وجدت أم لم توجد.

- ((ماذا عن آلهة العد والحساب؟ آلهة الورق والمخطوطات؟ لماذا تكفر بها؟ أخبرني. إنها آلهة شديدة العقاب.))

رمق باردن الفوضى بأعين ثملة ، ثم رد بجدية شابها سكر : ((اوه ، أنا لم أنس هذا ، كنت فقط أؤجله إلى أن يحين وقته ، أسبق وأن خيبتك مرة؟ كلا، أنا دائما ما أرضي آلهة العمل الممل ، لكن في أوقاتها المناسبة.))

- ((هذا وقت مناسب إذن ، رتب هذه الفوضى حالا. وأيضا لدي هنا متطوع سيساعدك في الأمر ، آمل أنكما ستنسجمان.))

وهناك فقط رفع السكران عينيه ليرى أخيرا الفتى إليام ، وأخذ يفحصه جيدا متفرسا ملامحه ومسبرا أغواره ، ورغم حدة تلك النظرات ، إلا أنهما لم يخلوا من الود ، ولم يحملا فيهما أي خطر ، وبعد مدة قال أخيرا : ((أجل ، سيفي بالغرض.)) عرفهما القبطان على بعضهما البعض ، ثم قبل أن يغادر مال على كتف الفتى وقال له بنبرة خفيضة هامسة : ((إنه مزعج بعض الأحيان ، وسكران في الأحيان الأخرى. لكنه يؤدي عمله بشكل مثالي ، حاول ألا تلقي بالا لتعليقاته الساخرة ، وإن أطلق عليك لقبا ما فلا تعر ذلك اهتماما أيضا. لا تقلق إنه ودود ، افعل كل ما يأمرك به وأجب عن كل ما يسألك عنه ، هل أستطيع الاعتماد عليك؟))

رفع الفتى عينيه إلى القبطان ثم حولهما إلى الأرض قبل أن يقول : ((أ . . . أجل . . . يا سيدي . . . سأفعل . . . سأفعل ما بوسعي.))

- ((جيد.)) قالها فيدورف مبتسما ، ثم غادر المقصورة ليلفعه الهواء الرطب ، وترتطم بضع شتائم من أفراد الطاقم التي يلقونها لبعضهم بعضا بأذنه ، كما

أطلقت شمس العصر عليه حرارتها ، وراح انعكاسها يترقرق بخفوت على الأمواج الزرقاء حولهم.

وجد زيك يزعق في وجه اثنين من البحارة وينعت أحدهم بالقرد ، بينما يبدو أن الآخر تلقى لطمة على وجهه ، فزفر القبطان ثم توجه إلى مساعده ، وحالما رآه المعاقَبان ركعا أمامه وتوسلا الرحمة ، بينما بصق زيك وقال للقبطان : ((هؤلاء كانا يسرقان اللحم من مخازننا وييبعانها خلسة كلما رسونا.))

- ((اوه هذا يفسر سبب نقص مؤونتنا.)) كان القبطان يتأمل الجاثمين أمامه ، أحدهما كان بدينا يفوح عرقا ، أما الآخر فكان نحيفا متسخا ، وقد راحا يتوسلان إليه بكلمات غير مفهومة ، إلى أن تكلم السمين : ((أرجوك يا حضرة القبطان ، نحن لم نقتطع الكثير ، سأعطيك كل ما كسبناه ، لم يكن كثيرا على أية حال ، أرجوك اغفر لنا ، لن يتكرر ذلك ، أرجوك.)) وانخرط الآخر في نحيب صاخب. لكن زيك ركل كليهما على وجهه صارخا : ((أجبرت على تناول المحار بسببكما أيها القذران ، يجدر بكما أن تعوضاني عن كل اللحم الذي لم آكله ، خصوصا أنت أيها السمين ، تبدو كخنزير لذيذ ، رغم أنك أكثر قذارة ، لكني لا أمانع ، كل اللحوم لذيذة حين تشوى.)) فارتجف اللص السمين وهَم ليركض لكن زيك أمسكه وراح يضربه بيدين عملاقتين ، حتى أمر القبطان : ((هذا يكفي ، اجلدهما هنا على مرأى من كل الطاقم ، عشرون جلدة ستعلمهما الدرس ، وحين نصل إلى اليابسة سنقرر ما سنفعله بهما.)) حدق المذنبان إلى فيدورف برعب ، وقال زيك : ((أمرك يا سيدي. رأيك صائب تماما ، في اليابسة سنجد طباخين أفضل ، أراهن أن أولئك الشرقيين لن يجدوا صعوبة حتى في تحويل

كومة العظام القذرة ذاك إلى إوزة شهية.)) فانتحب النحيف بصوت أعلى أما السمين فأخذ يتقيأ.

* * * *

حل الليل على السفينة ، وزار ضوء القمر قمرة القبطان متغلغلا عبر نافذته ، أين كان فيدورف ومساعده يتناولان العشاء ويتناقشان بينما يأكلان. كانت مائدتهما صغيرة نسبيا ، متكونة من ثلاث أطباق كبيرة ، أولها لحم إوز محاط بأرز بني ، والآخر طبق من الفواكه المجلوبة من الجزر ، أما الثالث فقد احتوى على الثريد.

قال زيك وهو يمزق رجل الأوزة : ((اه ، أولئك الحثالة كانوا يمنعوننا من أكل هذا كل ذلك الوقت ، لقد استمتعت بكل لحظة من جَلدهم. لكن أخبرني ، ما الذي تنوي فعله معهم حين نصل إلى اليابسة.))

رد عليه فيدورف ملتقطا كأسا فارغا محاولا بلوغ قارورة النبيذ : ((لا شيء.))

رفع زيك حاجبا ، وقال من وراء لقمته : ((لا شيء؟))

ابتسم القبطان بينما يصب الخمر في كأسه حتى امتلأ ، ثم رفعه إلى صديقه قائلا : ((سأتركهم هناك ، بلا مال ولا أي شيء. وسأرى إن كان باستطاعتهم النجاة. هم لن يجدوا أي عمل هناك كونهم لا يعرفون أي شيء عن لغة أهل الشرق ، لذا لن يملكوا أي حل إلا التسول أو الجريمة ، رغم أنني أميل أكثر إلى الاحتمال الأخير.))

انعقد حاجبا زيك وهو يقول : ((إذن فأنت تريد أن يتم القبض عليهم وسجنهم؟))

- ((بل قتلهم ، الحرس الإمبراطوري الشرقي لا يتساهل مع الغرباء.))

- ((فهمت.)) ثم أخذ قضمة أخرى من الإوزة المشوية.

كان صوت أفراد الطاقم يعلو بالخارج محملا بالشتائم والضحكات ، فقد اعتادوا بعد العشاء البدء في القمار على لعبة الورق ، التي نادرا ما تنتهي بهدوء ودون أذية شخص ما على الأقل.

انتقى زيك تفاحة من بين الفواكه ، وقال : ((أخبرني ، كيف يبلي الفتى الصغير؟))

- ((إنه جيد في الحقيقة ، أفضل مما ظننت ، حتى أن باردن السكير يخاطبه بود شديد.))

اتسعت عينا زيك قائلا : ((مستحيل ، ألم يطلق عليه ذلك العجوز لقبا؟))

- ((ولا حتى الشتائم الصغيرة ، إنه لا يتفوه أمامه بأي من ما اعتاد عليه.))

ضحك مساعد القبطان وارتج جسمه الضخم وهو يقهقه ، ثم قضم تفاحته وقال : ((إن هذا الفتى هدية من الآلهة إذن ، كنت أعلم أن أمه إلهة ما ، انتظر حتى أخبرها بالأمر ، لن تتركني أبدا بعد هذا.))

التهم القبطان ملعقة من الثريد ولما بلع ما في فمه قال : ((لا بد وأنها كذلك ، أتعرف أن الفتى يتحدث اللغة الشرقية؟ لقد أبهر ترجماننا ، وحينما سأله من أين تعلمت ذلك ، قال أنه تعلمه من أمه ، أكانت هذه المرأة شرقية؟))

- ((كلا ، هي ليست كذلك ، ليس على حد علمي.))

ابتسم القبطان قائلا : ((أيها الغبي ، كيف استطعت أن تتعرف على امرأة كهذه ، أعتقد أن عليك جلبها المرة القادمة.))

أفرغ زيك كوبا في جوفه ، ثم قال : ((كلا ، قالت لي أنها لا تحب رفقة الرجال الصاخبين ذوي الجسم المشعر.))

رفع القبطان حاجبا ثم رد : ((أتقول أنها لا تحب رفقتك؟))

توقف زيك برهة ، ليقول : ((ربما ، لم يبد من أفعالها أنها كذلك.)) وقهقه الرجلان.

غاب ضوء القمر عن المقصورة ، وساد الظلام أركانها بالرغم من الشموع المضاءة ، وبدأ صوت الأمواج في العلو ، كما تسرب نسيم بارد ومالت السفينة قليلا . بالأعلى سكتت الأصوات وتوقفت الأغاني ، فشعر القبطان برعشة أسفل عنقه بينما انفتح باب المقصورة بقوة ودخل منها أحد أفراد طاقمه.

- ((سيدي ، إننا نرى سفينة ما قادمة باتجاهنا.)) كانت كلماته تخرج لهاثا. فانتفض القبطان ومساعده على الفور وانطلقا إلى الخارج.

رفع فيدورف منظاره ، وإذ به يرى بين الضباب ضوء سفينة قادما في اتجاهه ، قال الذي جاء يستدعيه من قمرته : ((لم نستطع رؤيتهم من بعيد يا سيدي ، بسبب الضباب ، ولم يتبدوا لنا حتى اقتربوا.))

قال زيك متناولا المنظار وموجها إياه صوب ما هو قادم : ((ما الذي تعتقد أنها ستكون؟))

فكر القبطان قليلا ، وأزاح عنه فكرة مزعجة قائلا : ((غالبا ، هي سفينة تجارية أخرى ، بالحكم على أضوائها و . . .))

لكن زيك قاطعه فجأة : ((هناك واحدة أخرى.))

استعاد القبطان المنظار ونظر فيه مرة أخرى ، وإذ بسفينة ثانية أخذت تقترب على يمين الأولى ، وقبل أن يخفض منظاره ظهرت ثالثة على اليسار ، وفجأة شعر أن السفن تقترب بسرعة ، حينها أدرك فيدورف ما يحدث ، وأخفض المنظار ، وقبل أن يقول شيئا ، إذ بدوي قوي لبوق يعم الأرجاء ويثير الرعب في قلوب الرجال ، وكأنه عويل مئة وحش في صراع حتى الموت ، وحين اتسعت أعين الجميع في فزع ، وجد القبطان نفسه يصرخ : ((قرااصنة! اجمعوا الحبال ، ارفعوا كل الأشرعة ، انطلقوا نحو المجاذيف ، هيا!))

اندفع الجميع ملبين نداء قبطانهم ، بينما راح هو يأمر بإطلاق إنذار نحو السفينتين الأخريين ، وفورا عم الهرج والمرج أرجاء السفينة ، لكن الكل كان يقوم بعمله. *ما كان ذلك؟ القراصنة لا يستعملون مثل هذه الأبواق.* هكذا كان يفكر القبطان بينما اعتلى منصة القيادة ، وشرع في تدوير العجلة الثقيلة ، فكافح لإمالتها ، لكنه نجح في تحويل مسار السفينة ، وسرعان ما انخرطوا في مطاردة وسط البحر.

نفذت السفن التجارية الثلاث الأوامر ، حيث انطلقت "الحيزبون السكرانة" و "الساقية العذراء" في اتجاه اليمين ، بينما سلكت "الكرمة البيضاء" الاتجاه المعاكس ، فاندفعت سفن القراصنة وراءهم ، مرسلين اثنتين من سفنهم وراء الاثنتين الهاربتين ، بينما انفردت الكبرى بسفينة فيدورف.

رغم أنهم يبحرون بسرعة كبيرة ، إلا أن حمولتهم جعلتهم أبطأ من ملاحقيهم ، فعلم القبطان أن المواجهة قادمة لا محالة. أخذ نفسا عميقا وهدر في أتباعه : ((خذوا الأسلحة ، استعدوا للقتال.)) لا بأس ، لقد استعد لهذه

اللحظة ، رغم أنه يكره رؤية طاقمه يموت ، إلا أن بعضهم سيسقط الليلة ، لكن الباقي سينجو على ما يأمل.

أمر أحدهم بإحضار سيفه ، ووقف مستعدا بجانب عجلة القيادة ، وحين أوتي بسلاحه تمنطق به ، وانتظر ظهور أعدائه ، وعندما رأى خوف طاقمه صدح فيهم : ((أيها الرجال ، إنه لا بد من القتال ، كونوا شجعان ، وسأحرص على مكافأة من يأتيني بأكبر عدد من الرؤوس ، سوف نسحقهم هنا ، ونكمل طريقنا ككل مرة.)) وصاح طاقمه في حماس ، رغم أن فيدورف استشعر الخوف فيهم.

شيئا فشيئا بدؤوا يرون بدن السفينة الأخرى يقترب منهم ، وأشرعتها السوداء تخفق ، وصياح طاقمها يعلو ، وحين اقتربت بما فيه الكفاية ، دوى الصوت المزعج مجددا ، صوت البوق القوي ، معلنا عن بداية المعركة.

أنزل القراصنة جسورهم ، وأطلقوا حبالهم ، فتثبتت خطاطيفهم على حواف سفينة "الكرمة" وحين بدؤوا ينسلون إليها ، سمع القبطان صيحة زيك : ((كل من أجد سيفه نظيفا ، سآكله حيا.)) واندفع فيدورف نحوهم.

من بين صرخات الرجال وأصوات السيوف شق القبطان طريقه بصعوبة ، وأينما لمح وجها غير مألوفا غرز فيه نصله ، حين التفت إلى يمينه وجد زيك يقطع الرجال الواحد تلو الآخر ، أما على يساره فقد سقط أحد أفراد طاقمه، لينطلق فيدورف ويفاجئ القرصان الذي هاجمه موجها سلاحه إلى رقبته أين ذبحه لتتناثر دماؤه في كل مكان. لكن بدا له أن كل واحد يقتله يظهر مكانه اثنان آخران ، وكل ما تقدم القتال أصبح أصعب وأصعب.

التفت مرة أخرى إلى زيك ، ليجده محاصرا بين خمس رجال ، فحاول بلوغه إلا أن رجلا طويلا اعترض طريقه ، ربما لم يكن بضخامة زيك ، لكنه كان بالتأكيد أضخم من القبطان. سدد فيدورف بسيفه ضربة إلى كتفه ، لكن الرجل صدها وأبعد سلاح خصمه بعيدا بحركة جعلت القبطان يبتعد ، وحين سدد هو ، تعثر فيدورف وسقط أرضا محاولا صدها ، بعيدا سمع زيك يصرخ ، صراخ ألم ، فحاول التملص من خصمه عن طريق تسديد ضربة إلى رجله ، لكن الأخير تفاداها وأمسك بيده ، وحينها أصبح كل ما يراه القبطان هو عيني عدوه السوداوين الغائرتين ، وسمع صوتا عميقا يقول له : ((ستأتي معنا أيها القبطان.)) ثم ابتعد وجهه قليلا ، ليعود ويقترب بسرعة ، ويضربه في جبهته ، ومعه اختفى كل شيء.

* * * *

رجال يغمغمون بشيء لم يفهمه ، خيط ضوء راح يزيد ويخفت بشكل مزعج ، طنين ضل يتزايد مخترقا حواسه ناخرا في عقله ثقبا عميقا ، وجوه ضبابية كثيرة ، وأفواه تقول أشياء لم تبلغ مسامعه ، إحساس بالألم ، إحساس بالخدر ، إحساس بالغثيان ، إحساس بالنعاس ، إحساس بالموت . . .

فتح فيدورف عينيه أخيرا ، واستغرق مدة حتى عادت حواسه تعمل مرة أخرى ، وحين استعاد وعيه ، أدرك أنه في قفص. كان مكبل اليدين والقدمين وبجواره زيك وأربعة آخرون من أفراد طاقمه ، كانت الغرفة مظلمة إلا من مصباح زيتي صغير كان معلقا بجانب العمود أين كان ثلاثة من القراصة يشربون.

- ((هل أنت بخير أيها القبطان؟)) قالها زيك بهدوء بينما اقترب منه بعد أن لاحظ استفاقة فيدورف. كان جسمه مغطى بالجروح والدماء ومصابا من كل النواحي وأصبحت بشرته أكثر قتامة بعد أن اكتست بالدم الجاف وألقي عليها ضوء خافت.

قال القبطان : ((ما . . . ما الذي حدث؟))

أجاب زيك بنبرة خافتة دون أن يسمعه الآسرون : ((لقد . . . لقد استولوا على "الكرمة البيضاء" ، قتلوا الكثير منا ، وأسروا الباقي ، لم يتبق إلا اثني عشر شخصا من طاقمنا ، هم أسرى في سفينة أخرى على الأرجح.))

توقف القبطان قليلا ليستوعب الأمر. *لقد أخذوا سفينتي ، دمروا تجارتي ، دمروا حياتي!* بدأ الذعر يتملك فيدورف وبدأ جسده يتململ حتى أحس بأثر الضربة على رأسه والدماء الجافة التي تغطي جبهته ، تحسس القبطان المكان ، ليجد جرحا كبيرا طريا عاد يسيل بعدما لمسه.

- ((ماذا عن السفن الأخرى؟ هل أمسكوا ب"الحيزبون" أو "الساقية"؟)) إن بقيت إحداهما فربما يستطيع بدأ حياته من جديد إن استطاع الخروج من هنا.

أجاب زيك بنبرة كئيبة : ((أجل ، كان ذلك البارحة ، لقد أمسكوا بكلتيهما ، وحدث لهما نفس ما حدث لنا.))

زفر القبطان ، وأخذ يحدق في الفراغ. *إذن فقد انتهى الأمر ، قريبا سيقتلهم القراصنة ، القراصنة . . . يا ليتني استمعت لأولئك البحارة السكارى.* ((منذ متى وأنا فاقد للوعي؟))

- ((ليس كثيرا ، لقد نمت الليل بطوله ، والآن أظننا في الصباح ، أنت محظوظ حقا ، لم ينم أي منا.))

قلب ناظريه بين أفراد طاقمه ذوي الوجوه البائسة المصابة ، ثم إلى السجانين الذين يبدون كأنهم خرجوا من الجحيم ، ضاحكين منتشين غير آبهين لسجنائهم. *ربما ، بإمكاننا خداعهم والهرب.*

- ((أعرف فيمَ تفكر فيه ، لا تفعل ذلك. السكر يزيدهم عنفا ، حاولنا التكلم معهم لكن كل ما تلقيناه هو الضرب ، الأفضل أن يبقوا مشغولين عنا قدر الإمكان.))
كان شيء ما في زيك يوحي بالضعف ، الكسر ، إذ خيم الحزن على وجهه كما لو كان ظلا عظيما ، فقال له القبطان : ((أين الفتى؟ هل نجى؟))

نظر الرجل الضخم إلى الأرض واسود وجهه أكثر فأكثر وهو يقول : ((أنا لا أعلم ، لم أره أبدا ، لا هو ولا باردن كانا من الأسرى ، لذا فمن المحتمل أنهما . . .))

- ((ربما هربا.)) قالها فيدورف بسرعة ، كما لو أنه سينقذهما بقوله ذاك ، لكن مع الصمت الذي تبع جملته ، أدرك أنه أمل زائف.

- ((من يدري.)) وأرغم زيك نفسه على الابتسام.

ران الصمت على أفواه الأسرى ، فعَلت ضحكات القراصنة بينما يشتمون بعضهم البعض ، وسرعان ما أدرك القبطان أنهم يلعبون النرد ، وأن المصباح كان موجها نحو لعبتهم ، وإلا لما كانوا أشعلوه لهم من الأساس. لم يتحمل فيدورف ذلك ، وقال : ((أتعلمون إلى أين يأخذوننا؟))

أومأ الرجال بالنفي ، وقال زيك : ((من يعرف ، ربما سيبيعوننا كعبيد في الشرق ، أو حتى في الجنوب في أعماق الصحراء ، من يدري.)) فكر القبطان

بنفسه كعبد لأحد الأسياد الجنوبيين ، يعمل في المزارع الصحراوية ويسقي النخل ، ويرعى الإبل ، ويتلقى الضربات بالسياط ، لحسن الحظ ليس متزوجا ، لا أحد ليبحث عنه إن آلت الأمور إلى ذلك الحد ، ربما يستطيع أن يهرب في يوم من الأيام ، ويعود إلى موطنه ويزاول تجارته مرة أخرى. قال لزيك : ((ذلك أفضل من الموت ، أليس كذلك؟ على الأقل لديك فرصة ولو ضئيلة لاستعادة حياتك.))

تنهد الرجل الضخم ثم قال بمرارة : ((أظن ذلك ، الموت نهائي ، بينما الحياة مليئة بالفرص. كل ما أفكر فيه هو أم ذلك الفتى ، لعلها تصلي من أجل سلامته الآن على شرفة منزلها.))

وضع القبطان يدا على كتف صديقه، وطمأنه قائلا : ((ربما ستكون الآلهة أرحم معه.)) أومأ زيك برأسه دون أن يجيب ، وأحس القبطان بحاجة ملحة إلى إله.

مرت عليهم ساعات بدت دهورا وهم غارقون في الظلام ، ضائعون في المجهول ، لا يدرون أين سيأخذهم الآسرون ، ولا أين سيلقيهم القدر. حاول بعضهم النوم ، ونجح القليل في ذلك ، لكن لم يجنوا منه إلا الكوابيس. ووسط الظلام ، ظهر خيط من الضوء بالأعلى أخذ يزيد عرضه بسرعة حتى عمى أعينهم ، وما إن فتحهما فيدورف مجددا حتى لمح ظل شخص يقول له : ((فلتأتِ معي أيها القبطان.)) بدا له الصوت مألوفا ، إذ تردد مرارا في كوابيسه قبل ذلك ، وحين انفتح الباب وقيد مكبلا عبر درجات خشبية إلى الأعلى ، تمكن من رفع رأسه حيث بدأت عيناه تعتادان الضوء ، وهناك تذكره ، إنه ذلك الرجل الذي أفقده الوعي في المعركة.

قاده إلى سطح السفينة ، أين رأى مختلف الوجوه تطل عليه ، وجوه قذرة ، وجوه نظيفة ، وجوه بشعة ، وجوه جميلة ، أجساد نحيفة ، أجساد سمينة ، أجساد معيبة ، كان الكل مختلفا عن الآخر ، لكن جمعهم شيء واحد ، وهو لباسهم الأسود. أما ما وراءهم فلم يكن إلا البحر الأزرق مترامي الأطراف ، وما فوقهم هي شمس حارقة وسط سماء صافية ، فقدر أنهم في منتصف النهار ، لكنه لم يستطع معرفة مكانهم.

كان الرجل الذي قاده طويلا ، قويا ، ذا شعر غزير صنع منه جدائل أخذت تتمايل بينما يمشي ، وحين التفت قابلته لحيته الطويلة التي لفت خصلاتها هي الأخرى أيضا كجدائل ، ورمقت عيناه الغائرتان القبطان بتفحص وهو يقول بصوته العميق : ((كيف حال إصابتك؟))

لم يتوقع فيدورف تلك الكلمات من آسره ، لذا أجاب مرتبكا : ((إنني . . . إنني بخير.))

- ((جيد. أتعلم إلى أين نحن آخذوكم؟))

أومأ القبطان بالنفي.

- ((جزيرة تورتاغا.)) وأشار بيده نحو الأمام ، راسما ابتسامة على وجهه. ((أنت تعرفها ، أليس كذلك؟)) بالطبع يعرف جزيرة تورتاغا. ليس فيها إلا المنفيون والخارجون عن القانون ، وتزدهر فيها القذارة من كل الأنواع ، جزيرة الخطيئة كما تسمى ، أين تبصق الآلهة ، مرتع ملائم للقراصنة. أخذ القبطان نفسا ثم قال : ((لماذا تورتاغا؟)) كان يعرف الإجابة في قرارة نفسه ، بالطبع سيبيعونهم عبيدا. لكن القرصان أجاب : ((ستقابل رجلا مهما للغاية.)) ولما

لمح الحيرة على وجه فيدورف أكمل : ((الأمور لم تعد كما كانت ، إن شيئا عظيما على وشك الحدوث.))

- ((ما الذي تقصده؟))

لمع شيء ما في عيني القرصان وهو يكمل : ((الحبار قادم ، الإله العائد ، قريبا سيخضع الكل تحت يده ، وتركع الأمم تحت قدميه.))

بدا القرصان أشبه بمشعوذ وهو يقول تلك الكلمات التي لم يفهم منها فيدورف شيئا ولم يستطع فك أحجيتها لكنه أمسك بطرف خيط وقرر أن يبدأ منه : ((الحبار؟ أظنني سمعت هذا الاسم من قبل.))

ابتسم الرجل قائلا : ((سيأتي زمن لن تسمع إلا هذا الاسم.))

- ((إذن ، أنت ستأخذنا لمقابلة هذا الحبار ، أليس كذلك؟))

أشاح القرصان بوجهه عن فيدورف وتطلع إلى الأفق مجيبا : ((اوه كلا ، أنت لن تقابله الآن. سنأخذك أولا إلى الحرباء ، وهو سيقرر ما الذي سنفعله بك.)) فكر فيدورف : *أكلهم يحمل ألقاب حيوانات؟* ثم خاطب آسره : ((أنا لا أفهم ، ما الذي تنوون فعله بنا تحديدا؟))

- ((سنقرر ذلك حين نصل.)) ثم التفت إليه بنصف وجه. ((نحن لسنا كحثالة البحر الذين تقابلهم ، إننا جيش ، إننا أمة ، لقد تكلمت عنا النبوءات.))

شعر القبطان وكأن الرجل يربكه عمدا بقول تلك الأشياء المبهمة ، فسأله قائلا : ((أي نبوءات؟))

التفت عنه القرصان مرة أخرى وقد تغيرت نبرته حين قال : ((هذا كل شيء ، فلتعيدوه إلى زنزانته.)) وقبل أن يقول شيئا ، قادته أيد غليظة إلى أسفل أين التهمه الظلام مجددا مع رفاقه داخل القفص.

* * * *

- ((أتقول الحبار؟)) قالها زيك على الفور بعد أن أعاد القبطان سرد ما جرى وبينه وبين القرصان.

- ((أتعرفه؟))

- ((لقد سمعنا عنه شائعات هنا وهناك ، يقولون أنه يدعي نفسه إلها.)) ليتبعه أحد رفاقه المسجونين : ((سمعت أنه بطول شجرة.)) ويكمل آخر : ((سمعت أنه قد عاد من الحياة.))

نظر فيدورف إليهم في الظلام طويلا ثم قال : ((من المؤكد أنها مجرد قصص بحارة.))

تنهد زيك قائلا : ((أنا لا أعرف ، الخرافات تملك جذورا في الحقيقة. وصراحة ، فأنا لم أر قراصنة كهؤلاء من قبل.))

- ((ما الذي تقصده؟)) هل هو أيضا يشعر بذلك؟

- ((غالبا ما يكون القراصنة مجرد صعاليك مشتتين هدفهم النهب والإغارة ، أما هؤلاء ، فيبدو كما لو أنهم موجهون ، تماما كالجماعات الدينية المتعصبة.))

فكر فيدورف في الأمر ثم قال : ((أظن . . . أظن ذلك.))

ثم عم الصمت.

* * * *

دوى هدير بوق واخترق صوته الطاغي الهواء ومزقه ، أتبعته جلبة عالية أخذت تملأ أرجاء السفينة ، واستمرت أصوات القعقعة والصلصلة والهمهمة في الارتفاع حتى فتحوا عليهم الباب العلوي ، ليتدفق منه ضوء معمٍ آلم عيون الأسرى ، تدفق منه القراصنة وفتحوا الزنزانة ليقودوهم إلى الأعلى مكبلين مغمضي الأعين ، إذ أبت أن تفارق الظلام بعد طول عشرة ، وأضحى الضوء إليها مجرد عذاب.

قيد القبطان وطاقمه خارج السفينة إلى الميناء ، أين ازدحمت سفن أخرى كثيرة وراح فيها البحارة وجاؤوا ملقين أنظارا غير ذات معنى إلى الأسرى الوافدين. نظر فيدورف إلى الأفق ليجد الشمس سابحة على سطح البحر ، فلم يدر أهو الشروق أم الغروب ، إذ اختلطت عليه الاتجاهات وازدحمت داخله الأفكار. لمح سفنه الأخرى على الجانب الآخر من الميناء ، وقد سيق طاقمه أيضا خارجها ، فبدا الأمر كما لو أنهم قطيع غنم يجر إلى مذبحه.

اخترقت رائحة العفن أنوف الجميع ، وبرز بين المباني الملتوية الباهتة أناس أحياء أموات ، ذوي منظر مريض وكأنهم أشباح ، ففكر فيدورف : *إنهم سكان هذه الجزيرة ، إننا في تورتاغا.* رمقتهم الأعين المتعفنة حينما مروا بهم ، وبصق أحدهم عليهم بصقة صفراء ، بينما تقيء آخر في طريقهم ، وأطلت مومس عليهم من أحد البنايات وأطلقت سبة. *حقا إن هذه لأرذل بقاع العالم ،* هكذا فكر فيدورف ، لكنه سرعان ما استدرك *: لكنها مع ذلك تشبه أي مكان آخر.*

مشوا على طول الطريق في صف طويل ، حتى بلغوا بناية كبيرة ينقصها الجمال ، حينها قال قائد القراصنة لفيدورف : ((حان الوقت لتقابله.)) *أقابله؟*

لوهلة نسي فيدورف ما لقب ذلك الرجل ، ما الحيوان الذي أطلقوا اسمه عليه؟ وظل يحاول جاهدا تذكره ، بينما فصلوه عن بقية طاقمه وحين حاول الاعتراض ، قال له القرصان : ((أنت ستقابله وحدك ، وستقرر مصيرهم بما أنك القائد.)) ليقاد عبر رواق طويل واسع تسرب ضوء خافت عبر المصاريع المتواجدة في جوانبه ، لينتهي بباب واسع لا نقش عليه ولا زخرفة ، فقط خشب أصم ، وحين بلغوه فكوا أغلاله.

كانت الغرفة وراء الباب أشبه بمكتب ، صفت فيه الأوراق والمخطوطات على طول الرفوف على الجدران ، فجعله ذلك يتذكر الفتى إليام ، وباردن السكير. لكن من وجده خلف المكتب كان رجلا شديد شحوب البشرة ، حتى ابيضت بياضا عجيبا ، وذا طول فارع ونحول فاحش ، حتى أن عيناه قد برزتا من مقلتيها ، واستحالت شفتاه وجفناه إلى سواد قاتم. وفور رؤيته لهذا الرجل الموحش تذكر فيدورف أخيرا ما يطلقون عليه . . . إنه الحرباء.

- ((اجلس ، أرجوك.)) خرج الصوت ناعما ملغما ، وحوى داخله الكثير من المعاني ، وكلها كانت شريرة. ارتجف فيدورف ولم يرتح مطلقا للرجل ، لكنه جلس على كرسي خشبي بجانب المكتب ، بينما اعتلى الحرباء مكانه ، وأمر الجميع بالانصراف وإغلاق الباب.

حملقت عينان صفراوان كبيرتان بالقبطان ، فأحس بهما تعريانه وتسبران أغواره ، قبل أن يقول المضيف : ((ما اسمك أيها القبطان الطيب؟)) مهما كانت كلمات هذا الرجل لطيفة ، فإن نبرته توحي بأكثر الأشياء شرا ، ربما كان ذلك فقط شعور فيدورف ، إلا أنه حتى لو قال الحرباء : أحبك ، فإنها ستبدو كما لو أنه يهدد باقتلاع عينيك من محجريهما.

لم يكن لدى القبطان خيار إلا ليقول : ((اسمي فيدورف.))

التوت الشفاه السوداء ، وبدت كأنها ترسم ابتسامة ، لتنفتح قائلة : ((اه ، فيدورف ، تشرفت بمعرفتك ، أنا كاسبر ، نائب القائد العظيم للقراصنة ، الحبار.)) يبدو أنه لا يحب لقب الحرباء ، وأن الناس يقولونه فقط في غيابه ، أما الآخر فيبدو متيما بلقبه ، بل ويعلنه بدلا من اسمه . . . الحبار.

- ((سمعت أنك تاجر نبيذ ، تتاجر به مع الشرق ، أليس كذلك؟))

- ((أجل ، هذا صحيح.))

تحرك الحرباء من مكانه وأحضر زجاجة بها نبيذ أحمر ، ليصبه على كأس زجاجي فاخر ، فأدرك فيدورف أنه نبيذه. أخذ نائب قائد القراصنة يقلب الشراب داخل الكوب جيدا ، ويعاينه بنظره ، ثم إنه أخذ يتشممه ، ويلاحظه مرة أخرى بعينيه الفاحصتين وكرر ذلك مرارا ، ليلقي أخيرا نظرة على فيدورف ، ويقرب شفتيه السوداوين إلى حافة الكوب ، ليرتشف رشفة صغيرة.

- ((امممم ، إنه ليس سيئا أبدا ، ليس سيئا. إلا أنه برأيي يحتاج لأن يتخمر أكثر ، ألا توافقني الرأي؟))

نظر القبطان إلى عيني الحرباء وضاع وهلة هناك ، ليجيب بعدها : ((إن . . . إن الشرقيين يفضلونه هكذا.))

- ((أحقا؟ كم هم غرباء أهل الشرق هؤلاء.)) ثم وضع الكأس برفق على الطاولة. وذهب ليحضر زجاجة أخرى بها سائل أسود ، أفرغه في كأس أخرى ، ووضعها على طاولة المكتب. ((دعني أقدم لك نبيذي الخاص ، إنه أفضل الأنواع إن طلبت رأيي.))

تأمل فيدورف الشراب الأسود مطولا ليحول ناظريه إلى الحرباء ، وأبى جسده لمس الكأس ، فلاحظ الرجل ذلك واستحثه قائلا : ((اوه ، هيا ، إنه ليس سما ، أن ترفض ما يقدمه إليك المضيف لهو إهانة له. ألا توافقني الرأي؟)) كان ذلك ما قاله الحرباء ، لكن ما فهمه فيدورف هو *: اشرب ذلك الكوب اللعين وإلا أجبرتك على لعقه من الأرض بجانب أحشائك.*

رفع القبطان الكوب وعاينه ، ثم تشممه متعمدا تقليد مضيفه ، لم يكن للشراب أية رائحة ، فقربه ببطء إلى شفتيه ، ثم ارتشف رشفة. فتدفق سائل لاذع إلى حلقه ، لسع لسانه وأخذ يحرق حتى بلغ معدته ، وفورا شعر فيدوف بألم في رأسه فأغمض عينيه ، ليحس كما لو أنه يسقط . . . ليس إلى الأرض ، بل إلى الكون الفسيح ، ظل يسقط ، و يسقط ، و يسقط . . . كلا ، بل كان يسبح ، و يسبح ، و يسبح . . . ثم فتح عينيه وعاد إلى الواقع.

كان الحرباء هناك ، يحدق إليه بأعينه المخيفة ، وابتسامته السوداء. أما هو فلم يجد نفسه على الأرض كما توقع ، بل كان جالسا مثلما كان عليه قبل . . . *ما هذا؟*

- ((هل أعجبك شرابي؟)) وحين لم يجب فيدورف أكمل الحرباء : ((إنه شراب نادر بالمناسبة ، غال جدا ، يستخرج من شجرة نادرة تدعى الشيطانة. ولحسن الحظ فأنا أمتلك بساتين منها. خذ رشفة أخرى إذا أردت.))

إذا أردت. **((كلا ، رشفة واحدة تكفيني.))**

حدقت العينان الصفراوان إليه مطولا ثم قال صاحبهما : ((حسنا ، كما تريد. لندخل في صلب الموضوع الآن.)) ثم عاد ليتخذ مكانه وراء المكتب ، واكتسى وجهه بنظرة جدية زادته خطورة ، وأضحت نبرته أكثر شرا وهو يقول : ((إننا

على مشارف عصر جديد ، عصر لا أثر للإمبراطوريات والممالك فيه ، عصر يكون فيه الشخص سيد نفسه. ما رأيك؟))

- ((أنا . . . أنا لا أفهم.))

- ((كما ترى فإن الفساد قد طال كل بقاع العالم ، الملوك ، الأمراء ، التجار ، الناس ، وحتى الآلهة ، إن العالم في حاجة لمخلص ، ألا تعتقد ذلك؟))

- ((أعتقد . . . ذلك.))

- ((جيد. إن المخلص قد جاء ، نحن لسنا قراصنة ، نحن لا نسعى للنهب أو الثروة ، إن ما نريده هو نشر رسالتنا والانتصار لعقيدتنا.))

- ((وما هي عقيدتكم؟))

- ((الرب العائد ، إن كل ديانة قد تكلمت عنه ، وكل نبوءة قد ذكرت اسمه ، إنه الذي سيعيد التوازن إلى العالم ، إنه الذي سيجلب الحرية للناس.))

- ((وذلك هو الحبار؟))

- ((أجل ، لقد كان ذات يوم رجلا ، لكنه مات ، والآن عاد ليغير عالمنا. إن لديه آلاف الرجال تحت إمرته.))

- ((حسنا ، لكنني لا أفهم. ما الذي تريده مني؟))

عاد الحرباء إلى الوراء في كرسيه ليقول : ((أريد منك الانضمام. أن تكون جزءً من الثورة ، تخيل كم ستصبح غنيا بعدها ، ستصبح تلك البساتين التي تجلب منها الخمر كلها ملكك ، ولن يكون عليك الدفع لأي أحد.))

- ((لكنني لا أريد كل ذلك.)) نطقها على الفور غير مفكر في العواقب ، وحين أراد سحبها كان الأوان قد فات.

- ((لكنك تريد شيئا ما بالفعل ، أي شيء قد يخطر ببالك سيصبح ملكك ، فنحن كما ترى لسنا مملكة ، كلنا يملك ، وكلنا يحصل على مراده.))

- ((ماذا إن رفضت؟))

- ((يمكنك الرفض.))

- ((وما الذي سيحدث بعدها؟))

ثبت الحرباء عينيه على محدثه ، فاستشعر الأخير حجم الكارثة التي وقع فيها ، لكن القرصان قال : ((لا تقلق ، لم أتوقع منك القبول على أية حال ، لم أكن أصلا أبذل جهدا في إقناعك.)) ثم وقف ليكمل : ((الحقيقة أن الطريقة الأخرى أسرع ، وأضمن نتيجة أيضا ، أما الهدف من حديثنا الآن هو فقط لأعطيك فرصة ، لترى أننا لسنا نجبر أي شخص.))

- ((طريقة أخرى؟))

- ((اوه أجل ، هو من يعرف كيف يفعلها ، وليس أنا. سيكون عليك مقابلته قريبا.))

- ((ما. . . ما الذي سيفعله؟)) في تلك اللحظة كان الخوف يجري مجرى الدم في عروق فيدورف.

- ((أنا لا أعرف ، لا أحد يعرف حقا ، لكن لا تقل أنني لم أمنحك خيارا.)) ثم ابتسم بشفتيه السوداوين ، وأشار إلى الحرس ليأخذوه ، وبينما جروه خارجا ،

أخذ فيدورف يصرخ : ((انتظر . . . انتظر . . .)) لكن الحرباء التفت موليا إياه ظهره ، وانغلق الباب بعد أن مر به الحراس خارجا.

ألقوه بين أفراد طاقمه المساجين في زنزانة ذي إضاءة قادمة من نافذة مستطيلة صغيرة في الأعلى ، وأغلقوا الباب الحديدي وراءهم تاركين إياه على الأرض.

ساعده زيك ورجل آخر على النهوض ، بينما قال لهم بأسى : ((أرجو منكم مسامحتي ، سامحوني أرجوكم . . .)) ثم شعر بالعبرات تتسرب من عينيه. ***أهو يبكي من أجل حياته؟ لقد واجه الموت أحيانا كثيرة ولم يبك قط.***

- ((ما الذي تقوله أيها القطبان؟ ما الذي حدث؟))

ليحكي فيدورف ما جرى له وينقل حواره مع الحرباء كلمة كلمة. ((إنني آسف. لقد ألقيت بكم جميعا إلى التهلكة ، لو كنت قد قبلت لتم إطلاق سراحكم جميعا. إنني . . . إنني . . .))

انتفضت الوجوه التي كانت صامتة حين كان القبطان يتكلم ، وشرع الجميع يتحدث في آن واحد ، أما فيدورف فظل يحدق إليهم بحيرة ، حتى قال زيك : ((أيها القبطان ، إننا نفضل الموت على أن نصبح قراصنة ، نحن مستعدون لأن نتبعك لأي مكان ، حتى إلى الجحيم.)) وهناك شعر فيدورف بشيء يتحرك بداخله ، شيء عظيم يتخطى كل ما شعر به من قبل ، شيء جعله يبتسم ويكتشف لمَ كان يبكي منذ البداية.

*** * * ***

سيقوا كقطعان ماشية ، كصف من البائسين الذين ينتظرون الإعدام ، مكبلين مسلسلين ماشين ببطء وراء آسريهم من القراصنة ، فتبعتهم أنظار مقرفة إلى حيث هم ذاهبون ، إلى سفن تأخذهم نحو المجهول.

عادوا إلى الظلام مجددا ، وكل ما يسمعونه هو القعقعة وهدير الأمواج من تحتهم. أفواههم لا تنطق ، وعقولهم تتساءل ، ماذا سيكون القادم ياترى؟ لكن قلوبهم ترد : لا يهم. . .

على الأرجح سيقومون بإعدامنا عبرة لما اقترفناه. **فكر فيدورف في ذلك ، والغريب أن ذلك أعطاه نوعا من العزاء ، إذ أن الموت سيأتي ، وقريبا سيزول كل شيء ، وستنتهي الآلام ، ما الحياة إلا سباق كبير ، وما نحن إلا متسابقون يساقون بالسياط ، وما الموت إلا وصول إلى خط النهاية ، واحتفال بالنصر.**

أغلق القبطان عينيه ، وشعر وكأن الموت سيأخذه الآن لا لاحقا ، إذ بدأ يلمح أمام جفنيه المغلقين داخل عقله ، بعيدا في أفكاره ، صورا لحياته ، تمر بسرعة ، وكأنها عرض مسرحي ، وحين أدرك معنى ذلك كله ، ابتسم بهدوء ، واستمتع بالعرض.

. . . قعقعة وجلبة وأصوات عنيفة . . . ***تبا فليدعوني أرقد بسلام. . .***
بووووووووو! . . . ***تبا إنه ذاك البوق الغبي مجددا*** **. . . أصوات معادن تتلاحم** ***. . . ما كان ذلك؟***

فتح القبطان عينيه رغم أن ذلك لم يصنع فارقا ، إذ ظل الظلام ظلاما ، لكن الأصوات ما انفكت تعلو وتعلو حتى أصبحت فوقهم مباشرة.

- ((ما كان ذلك؟)) تساءل أحد أفراد الطاقم ، بينما قال الآخر : ((شيء ما يحصل بالأعلى.))

- ((يبدو وكأنه . . . قتال.)) قالها زيك بنبرة غير واثقة ، إلا أن الأصوات بالأعلى صدحت بذلك بكل وضوح وأعلنت عن الحرب الدائرة.

وحين بدؤوا يجمعون تلميحات عن ما يجري ، إذ بالباب فوقهم يفتح ، ووراءه وقف رجل قصير بثياب زاهية ، وأعين ضيقة ، وبينما أغمض الكل عينيه اتقاء للضوء ، رأى القبطان كل شيء بوضوح ، لقد كان الرجل شرقيا من أسطول إمبراطورية تسو.

* * * *

كالأرانب أخرجوهم من الجحر ، وعرضوهم أمام ذلك الرجل طويل الجذع ضيق العينين وسيم الوجه ، والذي بدا إلها أمام بقية رجاله الشرقيين القصار. تقدم ترجمان إلى القبطان قائلا : ((هذا ليو تشان. قائد الأسطول البحري الإمبراطوري لإمبراطورية تسو العظيمة.))

فرد القبطان بصوت مبحوح : ((فيدورف قائد سفينة الكرمة البيضاء ، تاجر خمور.))

نقل الترجمان حديثه إلى القائد الشرقي فرد هذا الأخير بلغته ، وترجمها الرجل : ((لقد تم أسركم من قبل رجال قرصان خطير جدا ، وأنتم محظوظون للغاية لأننا وجدناكم ، الحقيقة أننا لم نجدكم إلا صدفة.))

- ((أشكرك للغاية يا سيدي.))

ابتسم ليو تشان بعد سماع الكلمات من الترجمان ، وقال له : ((كلا ، محاربة القراصنة واجبي ، الحقيقة أننا كنا بالفعل نطاردهم حين بلغنا أمركم. أظن أن عليك أن تشكر هذا الفتى على كل شيء.))

ومن بين الأجساد ظهر جسد ضئيل لفتى خجول أخذ يقلب عينيه في كل الاتجاهات مرتبكا. هناك صاح زيك : ((إليام الصغير! يا لعطف الآلهة!)) ووراءه برز باردن العجوز وهو يقول : ((لقد كان كل شيء فكرته ، الهروب واللجوء إلى الأسطول الإمبراطوري ، كل ذلك كان فكرته ، لم أعلم أن باستطاعته تحدث لغتهم.))

نظر فيدورف إلى الفتى بفخر وقال له : ((انظر إلى نفسك ، أنت بطلنا يا فتى.)) احمرت وجنتاه خجلا ، وابتسم شاكرا القبطان ، حينها ضحك ليو تشان حين أسمعه ترجمانه ما يقولونه ، وقال لهم : ((ابتهجوا أيها البحارة ، لقد انتهى كل شيء ، كما أننا استطعنا الحصول على القليل من البراميل التي كانت معكم.))

- ((رائع.)) قال أحدهم.

- ((جميل.)) صاح آخر.

- ((كانت تلك نهاية سعيدة ، أحببتها.)) قالها تروبادور بحماس.

تنهد فيدورف قائلا : ((ليس تماما ، سفني سرقت ، ومعها جزء كبير من بضاعتي وجل أموالي ، بقينا قليلا في إمبراطورية تسو لكنهم أعادونا إلى هنا ، وكان علي إيجاد حرفة أخرى ، بعيدا عن البحر والقراصنة.))

- ((على الأقل تمكنت من النجاة لتروي لنا قصتك.))

سرح القبطان السابق قليلا مع أفكاره ثم ابتسم وقال : ((طبعا.))

وقبل أن يقول أي أحد شيئا ، بادر الذي كان يجلس مع القبطان : ((اعذرني ، لكن كلمة ما في قصتك جذبت انتباهي ولم أرد أن أقاطعك حينها.))

- ((وما هي؟))

- ((الرب العائد. إنها ليست مجرد مصطلح يستعمله القراصنة ، بل هو مفهوم قديم ظهر في العديد من الأماكن ودون في الكثير من المخطوطات والكتب.))

بدا على الجميع الاهتمام ، فاستحث ذلك الرجل على الإكمال : ((لقد كنت ناسكا في المدينة المقدسة ، وسمعت حوله الكثير من الأشياء كما قرأت عنه في الكتب القديمة . . . بالإضافة إلى أن هناك نبوءة . . .))

- ((عن ماذا؟)) بدا كما لو أن تروبادور على وشك الانفجار.

- ((شيء ما عن الرب العائد ونهاية العالم ، وما وراء بحر الظلمات . . . أنا لا أعرف حقا ، لم أكن مكلفا بالبحث في هذه الأمور ، لست إلا مبشرا أقيم الصلوات ، وأطعم الفقراء . . .))

- ((بحر الظلمات . . .)) فوجئ الجميع من هذا الصوت العميق الذي انطلق فجأة من وراء الظلال ، والتفتوا نحو كرولن الذي جلس بهدوء وراء نافذته وأخذ يقول : ((لقد ذهبت إلى هناك ، سأخبركم ما يوجد وراءه.))

كان عازف الناي يتوقع من تروبادور قول شيء ما ، لكنه لم يفعل.

- ((وحوش أسوء من كوابيسكم ، بحر أمواجه جبال ، وجزيرة ملأى بالمفترسين و . . . الإلف.))

- ((إلف؟)) سأل تروبادور

- ((إلف.)) كان ذلك كل ما قاله العملاق ، ليعود للتحديق إلى نافذته بصمت.

- ((لا تحاول . . .)) قالت الندالة موقفة تروبادور الذي كان سيمطر الضخم بأسئلته. ((لقد قال كل ما لديه ، لن يقول المزيد ، هذه عاداته.))

- ((لكن . . .))

- ((أنت ستزعجه لا أكثر. أعرف ما تريد قوله ، لكنني لا أنصحك بذلك.)) ثم مالت على أذنه وهمست : ((إنه مجنون قليلا ، أيا كان ما مر به ، فهو على الأرجح لا يتذكره ، وكل ما سيقوله لك هو ما سمعته الآن.))

كان عازف الناي يعرف أن صديقه سيجادل أكثر لذلك بادر بالقول : ((أظن أن الوقت تأخر ، علينا الانطلاق باكرا غدا ، هيا.))

أغمض المغني عينيه وزفر في حنق ثم قال : ((حسنا ، حسنا ، اعذروني لأنني لم أقدم لكم الكثير من الأغاني اليوم ، لذلك فأنا مدين لكم بأغنية أخيرة ، أغنية عنكم ، ألفتها بينما كنتم تقصون علي قصصكم الجميلة ، أرجوكم اسمحوا لي.)) ثم التقط قيثارته وداعبها قليلا ليقول لعازف الناي : ((رافقني بنايك.)) فقرب الأخير الناي إلى فمه وأخذ يطابق عزف القيثارة ويرافق ألحانها.

تموجت ألحان القيثارة وسبحت في بحر من الألحان ، حتى إذا بلغت الأعالي عادت مرة أخرى ونزلت إلى الأسفل ، رافضة إعطاء النغم نهاية مرضية ، فظل يتمايل ويتمايل بحثا عن مستقر ، ليأتي الناي ويدفئ سبيله ، ويعطيه نوعا من الألفة حنت لها القلوب ، وحين بدأ اللحن يرسو على صيغته النهائية ، أخذ تروبادور يشدو بعذوبة :

What are emotions? Our thoughts and words,

Driving our actions, pulling their girds.

Our hopes, our worries,

And things that just fell.

Life is just stories

That we need to tell.

So sing me a song, sing me a song,

About a marvelous story, and let it be long.

Embrace me with words, send me to worlds,

Swimming with fishes, flying with birds.

* * *

The beautiful waitress who was a slave,

Seeking the necklace of the queen, so brave.

To get her freedom, she entered and stole,

Now she must flee, then, before they know.

But the prince was there, she lost the dare,

He threw her in jail, she said: not fair.

But his brother was thinking, looking not blinking,

Gave the gorgeous her freedom and drew her painting.

* * *

The strong, vicious warrior, who went to the south,

Blood in his hands and prayer in his mouth.

A bear in the desert, hunter of men,

He killed all the peasants, achieved his plan.

But there he comes, there he comes,

The Knight of the Desert slashes and stuns,

Defeated his foe with great perfection,

Sent him away and gave him redemption.

* * *

The captain sailor, the merchant of wine,

Sailed with his labor, to where the sunshine.

The wind was behind them, the sea was quiet,

And that happens seldom, something wasn't right.

And that was it, the pirates appeared,

Defeated the sailors and hostages made.

They offered to join them, the captain said: no,

But the eastern fleet saved them and defeated the foe.

* * *

So sing me a song, sing me a song,

About a marvelous story, and let it be long.

Embrace me with words, send me to worlds,

Swimming with fishes, flying with birds.